أوج
لبناء فكري متجدد

قدوة .. ولكن
ملحمة

تايسون ونيوتن وأمة محمد ﷺ
سامي أحمد

الهولوكوست الأدبي
فاطمة محمد | العنقاء

اللغة والتلاعب بالوعي
الجوهرة بنت مقعد العتيبي

الفيزياء الحديثة وأدلة وجود الله
عبدالحكيم محمد النقيدان

حواس الروح الخمسة
أ. ليلى بنت عبدالرحمن الموسى

دراسات :
إرث داروين في العلم المعاصر
بروفيسور سيرج روبرت

كتب في البناء المعرفي
أحمد مقرم النهدي

مقابلة العدد
زيغمونت باومان
في نقد المادية الغربية

شخصية العدد
يوسف سمرين

مجلة تعنى بإثراء المحتوى الفكري الشبابي في مختلف مجالات الحياة العصرية بأسلوب حديث يراعي التنوع في درجة التناول بين ما يناسب القارئ العادي والمتخصص

تصدر عن مركز دلائل
dalailcentre@gmail.com

المشرف العام
أ. د. خالد بن منصور الدريس

رئيس التحرير
عبدالله بن حمد الركف

مدير التحرير
م. أحمد حسن

هيئة التحرير
نخبة مثقفة مختارة من الشباب والشابات

المحتويات

الافتتاحية : القراءة والوعي — ١ — أسرة التحرير

قدوة .. ولكن — ٣ — ملحمة

العطور : القصائد الكيميائية — ٧ — م. عبدالله بن خالد الدريس

الهولوكوست الأدبي — ١١ — فاطمة محمد | العنقاء

الفيزياء الحديثة وأدلة وجود الله — ١٩ — عبدالحكيم محمد النقيدان

حواس الروح الخمسة — ٢٥ — أ. ليلى بنت عبدالرحمن الموسى

آخر مستجدات نظرية التطور — ٢٧ — م. أحمد حسن

اللغة والتلاعب بالوعي — ٣٣ — الجوهرة بنت مقعد العتيبي

إبداعات الفنون : الرسم — ٣٩ — أمل آل شبلان (عقد الجمان)

إبداعات الفنون : الشعر — ٤٣ — رغدة أبو بكر كردي

إبداعات الفنون : التصوير — ٤٩ — سعد عبدالله الحربي

لقاء العدد — ٥٩ — زيغموند باومان

كتب مختارة — ٦٧ — فريق التحرير

تايسون ونيوتن وأمة محمد ﷺ — ٧٣ — سامي أحمد

شخصية العدد — ٧٧ — يوسف سمرين

كتب في البناء المعرفي — ٨١ — أحمد مقرم النهدي

إرث داروين في العلم المعاصر — ٨٧ — بروفيسور سيرج روبرت

المقالات والأعمال المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

للتواصل وإرسال الملاحظات أو المقالات المقترحة : Aog@dalailcentre.com

افتتاحية العدد

أسرة التحرير

القراءة والوعي ..

تختلف المتع الحسية والروحية لدى البشر، وكلما لامست المتعة جوهر الإنسان كلما كانت أطول أثراً وأعمق ذاكرةً، ومن هذا الصنف من المتع ذات التأثير العالي على النفس هي القراءة، فكم من قراءةٍ في الصغر أو الطفولة بقيَ أثرها في النفس إلى الكهولة، وكم من قراءةٍ حفرت كلماتها مكاناً في الذاكرة لا ينمحي.

لكن إزاء هذه الأهمية لهذه المتعة الحلال، كان لزاماً على العاقل أن يسأل : كيف أقرأ ؟ بمعنى... ما هي الطريقة المثلى للقراءة حتى تؤتي هذه الدقائق أو الساعات ثمارها ؟سواء من القراءة الخفيفة القصيرة أو الثقيلة الطويلة ؟ والإجابة الحقيقة يصعب تفصيلها في هذا الحيز الصغير لهذه الكلمة الموجزة، لكن في العموم يمكننا أن نشير إلى أهم نقاطها فنقول :

قبل السؤال عن (كيف أقرأ ؟) يجب السؤال عن (لماذا أقرأ ؟) والذي سيترتب على إجابته سؤال آخر وهو (ماذا أقرأ ؟)، فالإنسان إذا ما أدرك حاجته للقراءة (العلمية - الدينية - الثقافية - الروائية إلخ) سيكثف جهوده بعدها لانتقاء أفضل ما يقرأ في كل مجال... ثم يأتي بعد ذلك سؤالنا وهو (كيف أقرأ ؟)، والذي يمكن أن نوجه إجابته في ضوء الكثرة الكاثرة اليوم لما يتم كتابته من حولنا مقارنة بعشر سنوات فقط مضت، فاليوم صرنا أمام مئات المواقع، وآلاف الكتاب، ومئات الآلاف من المدونين والناشرين سواء في جهات رسمية أو على مواقع التواصل الاجتماعي، ونصيحتنا هنا ألا تترك وعيك مفتوحاً لاستقبال كل ما تقرأ بغير تمحيص، أو بغير نقد أو نظر في أهداف معلنة أو مستترة للكاتب، كذلك من المهم تدوين ملاحظاتك والاحتفاظ بأفضل ما تقرأ، وأخيراً : أن تدرك أن أنفع القراءة ما أورث العمل.

قدوة .. ولكن

ملحمة .. باحثة مهتمة بقضايا الفكر المعاصر ...

ذلك الطفل كبر أمام الشاشة، كانت حضنه وتسليته الوحيدة، قدوته شخصية وهمية مُقنّعة تحاول إنقاذ العالم، ومسلسلات كرتونية يتخللها بعض التسربات القيمية لم تكن في حسبان والديه، لقد كوّن الطفل أفكاره من عدة شاشات وعدة مقاطع، ولأن شاشة التلفاز المهتمة بالأطفال لا تضع في اهتمامها القيم وتستبيح عين الطفل بمشاهد لا تمت لدينه ولا لمجتمعه بصلة؛ فقد صنعت في مخيلة الطفل صورة مشوهة عن واقعه، فهو ينتمي جزئياً لأبطاله، ويقارن تلك الصورة بما حوله ليبدو له أن سقف الحرية في المسلسل الذي أمامه يتجاوز ما يعيشه، ويشكل بذلك أسئلة قد لا ينتبه إليها أحد.

فمثلاً تلك البطلة لديها "صديق" في المدرسة، وقبل الوداع يراهما يقبلان بعضهما، أو مثال آخر يتجلى في تلك الملابس غير المحتشمة التي تغزو عين الطفل وتخدش براءته، مشاهد دخيلة كهذه تجعل موازين هذا الصغير تختل يوماً من بعد يوم بعدد المرات التي تمر به، وبعدد ما صنع من قدوات كرتونية يتم تقديمها في نمط حياة لم يعهده.

هذا مع تجاهلنا الملامح العنصرية في احتقار العرب أو السود والنظرة الصراعية الداروينية البارزة في تلك المسلسلات عن البقاء للأقوى، فتلك الرسوم تم إنتاجها في بيئة غربية لها معايير وأسس مختلفة عنا، والأدهى أنها لا تمانع تمرير هذه الأفكار لعقلية الطفل الهشة. فعبر الكارتون يمكن قول أي شيء، والرسم على مخيلة الطفل كيفما نشاء، والطفل خلال ذلك لا يُطلب منه إلا الاسترخاء حتى يصل إليه كل ما هو جاهز للاستهلاك البصري والسمعي على طبق جاهز.[1]

خلال ذلك تنتقل القدوة من الوالدين إلى الشاشة التي جعلا الطفل رهينة لها، فأبطال ديزني قد يحتلون ذلك الدور الأبوي بسهولة. فلقد أشار ماكس رافيتي أحد مراقبي التعليم في كاليفورنيا إلى والت ديزني بوصفه "المعلم الأعظم في هذا القرن".[2]

ولا شك أن كلمة 'المعلم الأعظم' تختصر علينا الكثير في فهم هذه الشركات كمنتجة لمفاهيم ومصدرة لقدوات وهمية يتلبس الطفل تصرفاتها بإذعان، بل وقد

يقترن التباهي عنده بالحصول على حقيبة تحمل صورة ذلك البطل أو مجلة تتحدث عن هؤلاء الأبطال بعد أن كان الطفل في زمن مضى يتباهى بعمل والده لا دور شخصيته المفضلة. وأنا هنا لا ألمح لإيجابية أو سلبية ما تقدمه ديزني، بل أتحدث عن استلاب القدوة من الأسرة وانهيارها في عين الطفل.

» خلال ذلك تنتقل القدوة من الوالدين إلى الشاشة التي جعلا الطفل رهينة لها «

ويتتابع هذا الانهيار حين يترقى أو -ينحدر- الطفل من شاشة التلفاز إلى تلك الشاشة المتنقلة المتمثلة في الهاتف، وما يحويه من خيارات أوسع يعجز الصغير عن تحديد أيها الأفضل له، فيتوه متنقلاً بين شبكات التواصل ليجد التسلية الفارغة تتلقفه دون عناء البحث، ولنأخذ ساحة اليوتيوب كمثال...

حيث تعزز تلك المقاطع التي يتابعها ملايين الأطفال والمراهقين صنع قدوات تافهة. وفيه نلاحظ أن الطفل لم يعد متلقياً فقط، فهو مستخدم وصانع للترفيه غير الهادف من خلال مقاطع التحديات ذات المشاهدات المليونية كمثال، بل مررت على مقطع لطفلة لم تتجاوز السادسة تصور مشهداً على نفس النمط الرائج للتحدي، تدرك أمام تلك الطفلة أن الأسرة شاركت في هذا الانحدار من خلال التخلي أحياناً وترك الطفل بلا رقابة، ومن خلال تجميل تلك الأدوار حين يمنحونه فرصة الظهور ويبنون في نفسه قيم متردية كالشهرة بلا هدف.

وليت الأسرة تدرك أنها تقحم ابنها في عالم أكبر منه، يوفر له بضغطة زر خيارات من المشاهد التي لا تناسب الإنسان السوي كالإباحية والمقاطع العنيفة والأفلام الساقطة وغيرها، فتلك الساحات ليست محطات ترفيهية فحسب، بل ناقل للأفكار كذلك، وخلالها تبنى تصورات وتتغير مضامين، ويصبح اليوتيوب الرفيق في أوقات الفراغ والانتماء الجديد للفرد .

وبينما يقضي وقت فراغه على سخافات وآفات اليوتيوب تكون ساعاته الأساسية من نصيب ألعاب الفيديو ذات العوالم المتعددة، والتي بات نطاقها أوسع مع خاصية اللعب الجماعي بالإنترنت مع الأصدقاء أو غيرهم، وهنا تصنع اللعبة جواً من الاستمرارية والحركة الدائمة والرغبة في الانتقال بين المستويات إلى حد إغراق اللاعب في المتعة، فلا نهاية للمهام، وتحديثات اللعبة لا تنقطع، كما أنها تمنحه فرصة بناء شخصيته التي يرى نفسه من خلالها، وتغرقه في عالم له مثاليته ولذته وإنجازاته الوهمية، بل وقد يبني أهدافه في اللعبة أكثر من أهدافه في الحياة.

كما أن بعض الألعاب الجماعية أو ما يسمى بالـ MMORPG تحتاج لتجديد اشتراك شهري، وبالتالي لا يتم إنفاق الوقت فقط بل والمال كذلك، ولو جمع هؤلاء المبالغ الشهرية التي تدفع لوجدوا أنهم ينفقون ما يقارب الألف سنوياً.

وإضافة للوقت والمال يتم سلخ اللاعب من قيمه، فلازلت أذكر على سبيل التمثيل لا الحصر تلك اللعبة الشهيرة التي كانت تضع الزواج بين الشريكين كمهمة ثانوية في اللعبة دون

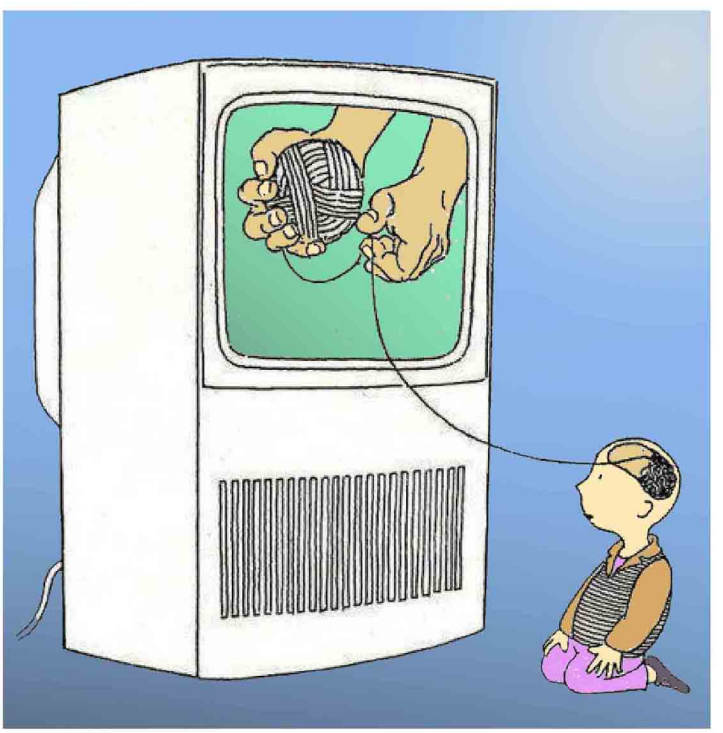

التقيد بتحديد الجنس ذكر/أنثى، وهي بذلك تمرر فكرة المثلية أو الشواذ لعقل المراهق بصورة مقربة أكثر تجعله يألف المشهد حين يمر أمامه في الواقع، ومثل ذلك دور بعض الألعاب في جعل الشخص أكثر تقبلاً لمشاهد العنف، فقد أثبت نيكولاس كارناغي أن التعرض الموجز لألعاب الفيديو العنيفة يؤثر في تفعيل ذلك الجزء من الدماغ الذي يزيد ضربات القلب تلقائياً، ففي تجربة مارس المشاركون لعبة فيديو عنيفة ومارس نصفهم لعبة غير عنيفة لمدة عشرين دقيقة، ثم شاهدوا بعد اللعب على الفور مشهداً من العنف في العالم الحقيقي الفعلي، مثل مشاجرة وقعت في سجن ما وتعرض أحد السجناء للطعن مراراً وتكراراً، وفي أثناء قياس معدل ضربات القلب ظهر على مَن مارسوا لعبة الفيديو العنيفة تغيراً أقل في معدل ضربات القلب، مع تعرق أقل في راحتي اليدين أثناء مشاهدة الفيديو مقارنة بمَن مارسوا لعبة الفيديو غير العنيفة، فقد أدت اللعبة العنيفة إلى جعل المشاركين أقل تأثراً وانزعاجاً بالعدوان في العالم الحقيقي.[3]

فهي إذا لم تحفز العنف عنده جعلته متصالحاً مع مشاهدته في واقعه، ومما لا أشك فيه أن محبي الألعاب يعشقون سرد إيجابياتها ويزعجهم تناولها بسلبية، إلا أن الحديث هنا عن جعلها بديلاً عن الواقع، والانغماس فيها، والتقاط قيمها المتدنية لا شعورياً وجعلها غاية ومجتمع نهاجر إليه بعقولنا.

وهكذا يحل التلفاز مكان المُربي، وتصنع مواقع التواصل المعايير، وتساهم الألعاب في دفن الطفل أو المراهق في عالم من السعي الدائم إلى اللذة والمتعة دون أن يعترضه سؤال قيمي مثل "وقته فيما أفناه وماله فيما أنفقه" فهو لم يمر بتلك العملية التربوية التي تخبره عن الحدود التي تتوقف عندها متعته، ووجد نفسه رهيناً للدنيوية التي يعيشها هذا العالم دون توقف عند فكرة الآخرة، رهين عالم شديد التبدل يُغيب المشهد الإيماني ويرسخ صناعة الترفيه دون اعتبار للقيم والمعنى، عالم عبثي في تصوراته التي يمررها لعقول قد لا تملك ترسانة فكرية تمكنها من مواجهته، فتكتسي بحلته المادية وتستهلك أفكاره.

وقد لا نتحدث كثيراً عن البديل الذي يمكن توفيره للطفل والأفراد غير تلك الشاشات، فمن الواضح أنه لا نتاج عربي على مستوى المحتوى يسد الثغرة القيمية، ولو وجد فهو يتماشى مع القيم الغربية متجاهلاً مجتمعه وأفكاره واختلافاته.

وهنا يبقى الدور التوعوي في يد الكيان الأسري، والذي توجب عليه مكانته الأساسية في المجتمع أن يكون الأمان الفكري للطفل والحصن لأفراده من التفسخ الأخلاقي، فالتفكك العائلي ليس النتيجة الوحيدة لهذه الهوة التي تصنعها الأجهزة، بل قد يتبعها تفكك المجتمع إذا ما أدركنا حجم اقتحام الشاشات للمنازل. فالأسرة تشكل القاعدة والقاسم المشترك لبقية المؤسسات الاجتماعية، بل ونقطة تلاقيها وتفاعلها حيث تتجسد من خلالها الخصائص الثقافية ونظم المجتمع وقيمه، وبالتالي فبمقدار تماسك الأسرة ومتانة بنيانها وتمكنها تتعزز مكانة البنيان الاجتماعي.[4]

لم تغب عن المنظومة الإسلامية هذه الحقيقة بخصوص الدور الذي تلعبه الأسرة كنواة، لذلك نجده محملاً بتوصيات وتوجيهات قيمية نحن في أمس الحاجة لتفعيلها اليوم، وبث الوعي بها بعد التنبيه على حالة الاختطاف القيمي والواقع المعولم الذي يجتاحنا وينازع الأهل في أدوارهم، والتذكير بخطورة الآلة الإعلامية التي تشوش العملية التربوية.

ولننطلق من الحديث النبوي المتفق عليه للمصطفى عليه الصلاة والسلام "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" لنستعيد بدهية أساسية حول ما يحمله دور الوالدين من مسؤولية وتكليف تكاد أسر اليوم تغفلها، وليحمل كل فرد على عاتقه همّ إصلاح ذاته ومحيطه، كواجب نواجه به الفوضوية الأخلاقية في حاضرنا المتردي.

وأخيراً.. ساحة القيم تحتاج لعمل، وحضن العائلة حجر أساس يجب استعادته.

المراجع :

[1] إيمان عبد النبي بلوط، سوسيولوجيا أفلام الكارتون وتطبيع الطفل العربي، ص 66.
[2] هربرت شللر، المتلاعبون بالعقول، ص 118.
[3] سوزان جرينفيلد، تغير العقل، ص 217.
[4] د. مصطفى حجازي، الأسرة وصحتها النفسية، ص 41.

" القدوة ليست الشيء الرئيس الذي يؤثر في الآخرين .. بل هي الشيء الوحيد "
الفيلسوف الفرنسي الألماني : ألبرت شفايتزر
" Example is not the main thing in influencing others. It is the only thing "
French-German philosopher : Albert Schweitzer

العطور: القصائد الكيميائية !

م. عبدالله بن خالد الدريس
هندسة ميكانيكية - جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

إن تجاهلت فضولك ولم تأبه للجمال : فلن تعرف من الحياة إلا القليل.. أما إذا وجهت فضولك وتتبعت الجمال : فستدرك الكثير عن هذه الحياة لا محالة.

سيداعب الجمال روحك إن سمحت له بذلك، فالمنظر البديع للنهر وهو يشق تلك الغابة الجبلية سيصير غذاء مكثفاً للعينين، وصوت خرير الماء وهو ينساب من قمة الجبل في انسجام تام : لن تخطئه أذنك مع خلفية حفيف الأشجار على سفحه. ولن تنسى كذلك تلك الورود ذات الألوان البهية التي تهمس بحروف لا مرئية ترجمها الأنف إلى جمل عطرية تحرك مشاعر البهجة في الفؤاد.

الرائحة هي جزيئات متطايرة باهتزازات مميزة وغير ملحوظة، لا تأبه لها العين، ولا تعيها الأذن، ويحار فيها الأنف المرهف الذي ينفجر بالأسئلة عن ما هيتها ؟ فسرعان ما يصاب بالتعب لا سيما إن ظلت تلك الأسئلة معلقة في فضاء الغموض بلا إجابات ولا دلائل بصرية أو عبارات لفظية.

ظلت الرائحة لكثير من الوقت محل تساؤلات ومحاولات لفك شفرتها، فمنذ خمسينيات القرن الماضي وصناع الترفيه ومصممو التجارب الحسية يخوضون التجارب العملية لدمج الروائح بالصور والأصوات بل وحتى الرسائل المكتوبة، سواء كان ذلك في قاعات السينما أو إرسال الروائح عن طريق البريد الإلكتروني ! ظلت كلها محاولات خجولة مقارنة بالتطور التقني الضخم في مجال الصوتيات والمرئيات. وعلى الجانب الآخر لم تحظ الروائح والعطور باهتمام الدراسات المعنية بالتفضيل الجمالي بالقدر نفسه الذي لاقته فنون الرسم والنحت والعزف الموسيقي. قد يعود سبب ذلك إلى أن الروائح من أشد المحسوسات بعداً عن المعيارية، ولصعوبة حصرها في وحدات قياس كمية أو إجراء تحليلات تنبؤية حولها، ناهيك عن ارتباط الروائح بمخزون العواطف في داخل كل شخص منا، والذي يخضع إلى تعقيدات نفسية تراكمية لذكريات الشخص وما يربطه بالروائح من مشاعر وكلمات.

من هذا المنطلق جاءت فكرة هذا الموضوع لتسليط الضوء على الروائح كجزء من الجمال، وتجربتي مع العطور وأثرها على كينونة الإنسان.

مفتاح البحث عن الزمن الضائع :

هل سمعت يوماً عن الذاكرة البروستية ؟!، والمقصود بها ذاكرة الروائي الفرنسي الشهير مارسيل بروست، الذي كان

مصدر إلهامه في رحلة دامت 13 عاماً هي رائحة ونكهة كعكة المادلين المغموسة في كوب الشاي ! تلك الرائحة التي قادت بروست لسبر أغوار ذاكرته من الطفولة إلى الرشد ليكتب أحد أهم الأعمال الأدبية في القرن العشرين.

الرائحة من أقوى المحسوسات قابلية لصنع كثافة حسية لاستعادة ذكريات قديمة يزداد عمقها بالتكرار وارتباطها بأشخاص قريبين لك. لنأخذ على سبيل المثال الروائح العطرية التي مرت بك في طفولتك. هل تتذكر عطر والدك أو والدتك ؟ ما المشاعر التي تستحضرها عندما يمر بك عبير عطرهم ؟ مشاعر اطمئنان وبهجة وأنت بصحبتهم ؟! أم خوف ووحدة ورائحة البيت تعج بعطورهم لخروجهم في إحدى المناسبات؟ أياً كانت إجابتك فمن المؤكد أنك استحضرت انطباعات ومشاعر تعتمد على جودة الروابط المخزنة لديك عن ذلك العبير العطري الذي تكرر معك كثيراً من شخصين عزيزين على قلبك.

استناداً إلى هذه الحقيقة اعتدت منذ سن الثامنة عشر على (تحنيط) مشاعري بشكل شبه سنوي، فما أن تقارب زجاجة عطري من النفاذ احتفظ بآخر 5 ملليلتر من العطر، إلى أن تكونت لدي الآن مجموعة متواضعة من بقايا العطور، والتي أحب أن أسميها (قاموس المشاعر)... فبين الفينة والأخرى أعود لزيارة أحد العطور باستنشاقه، فكل عطر منها مرتبط بمرحلة سنية وكثافة حسية مختلفة، وكم من الجميل إدراك مدى تطور رصيدك الخبراتي ونضجك النفسي حين تقف لوهلة وتقلب صفحات (قاموس مشاعرك) الخاص لتقيم ماضيك.

وسيلة لتحسين المزاج ووضوح المشاعر :

الأروما ثيرابي :
أو العلاج العطري Aromatherapy وهو أحد الطرق الشعبية لتحسين المزاج بشكل تلقائي بعد استنشاق مستخلصات زيتية من بعض النباتات والأخشاب المتعارف عليها مثل : نبتة اللافندر، وإكليل الجبل، وخشب الصندل، والفانيلا، وورق الليمون، وأوراق الشاي، وزهر اليلانج – يلانج.

تستند فكرة الأروما ثيرابي على التجارب واستطلاعات الرأي من ممارسيها على مر سنوات عديدة تم تكوين خبرة شعبية من خلالها ومراجع مكتوبة عن بعض المستخلصات الزيتية التي يتفق الغالبية على تأثيرها - وليس الكل - في إفراز هرمونات داخل الدماغ تساعد على الاسترخاء وتخفيف الصداع وتحسين الذاكرة وتزويد الجسم بجرعات من النشاط. مثال ذلك رائحة اللافندر تشتهر بتهدئة الأعصاب وتمهيد الجسم لنوم عميق. أما رائحة إكليل الجبل فتشتهر بتنشيط وظائف الدماغ وتحسين الذاكرة واستخدامها كمضاد للاكتئاب. وأخيراً وليس آخراً رائحة زيت ورق الليمون حيث تشتهر بتخفيف أعراض الصداع. وتختلف طرق استخدام الزيوت في الأروما ثيرابي من استنشاق الروائح الفواحة أو مزج المستخلصات بماء الاستحمام أو خلال جلسات تدليك الجسم، وعلى أية حال يجب تنويه القارئ العزيز للبحث بتفصيل أعمق في هذا الموضع وتأكده من مناسبة المستخلصات الزيتية وتركيزها له لتفادي أي حساسية أو طفح جلدي لا سمح الله جراء الاستخدام السريع لهذه الوسيلة.

لعبة قاتل الإغواء :

لست كازانوفا ولا بروفيسور الإغواء لكن أؤكد لك أن "ماكينة" الإغواء تعمل تلقائياً بوقود أسئلة الفضول، وتزداد كفاءة تلك الماكينة حين تنهمر الأسئلة بغزارة دون أن يقطع سريانها إجابات مقولبة ومركبة.

علاقتي بعالم الروائح والعطور تحديداً بدأت منذ مراحل مبكرة في طفولتي، وأخذت منحى جدي بعد اطلاعي على رواية "عطر : قصة قاتل" للكاتب الألماني باتريك زوسكيند. حيث انتابتني الدهشة ! كيف بشخص مرهف الحس يقتل عشرات النساء ليصنع زجاجة عطر صغيرة ؟!

وبعد تحليل لشخصية بطل الرواية "جان باتيست غرنوي" تبين لي أنه أسير شبح الإغواء طوال سيناريو الرواية، فقد كان يعتمد على أنفه وأحاسيسه قبل عينيه في السير بين الطرقات واصطياد الروائح، والأهم من ذلك هو مشكلته القديمة مع الكلمات وعدم قدرته على توظيفها في الوصف والتعبير على عكس الراوي الحصيف المسهب في الشرح والتفاصيل.

يمكن أن يقال : إن عبير العطر

الزكي في الهواء يوقع ضحاياه تحت سلطان الإغواء حتى يتبين ما هية الرائحة وما مصدرها فيخف أثر سحرها أو قد يتلاشى كلياً. وبالاستناد على هذه القاعدة في رأيي المتواضع : فإن الوسيلة الأنجع لقتل الإغواء هو وضوح الأحاسيس وسهولة شرحها ووصفها.

ومنذ اكتشافي لهذه القاعدة، قررت تطبيقها على شكل لعبة - أو هواية إن صح التعبير - اسمها قاتل الإغواء.
فأخذت بكتابة رأيي الشخصي عن كل عطر أشم رائحته، ثم بدراسة مكونات ذلك العطر وفهم رائحة كل مكون فيه على حده مع كتابتي شخصياً وصفاً له : تولد لدي على مر السنين ومئات الزجاجات العطرية وصفحات الدفاتر المتناثرة شغف عارم بالكتابة الوصفية، وبهجة متزايدة بانتقاء المصطلحات الشارحة والواصفة للمحسوسات. ناهيك عن انفتاح شهيتي لتذوق لغات أخرى تحليلية غنية بالمصطلحات الحسية والوصفية كالفرنسية والألمانية.
وإن سبق وتساءلت عزيزي القارئ لماذا ترتبط العطور دوماً بفرنسا ؟ فتذكر أن أدق لغة وصفت الروائح والمحسوسات في العصر الحديث هي اللغة الفرنسية، وأثر ذلك بالطبع ينعكس على كم الكتابات والأكاديميات المختصة في العطور بفرنسا، ناهيك عن امتياز موقعها الجغرافي، حيث تقع فيها عاصمة المحاصيل العطرية في العالم مدينة "غراس".

مستقبل الروائح والعطور :

في زمن تسارع التقدم التقني أصبح الخيال قريب المنال، بالإضافة إلى أن الخبرات ووفرة الأفكار أصبحت على أطراف أصابعنا مع توغل الإنترنت في حياتنا بكل تفاصيله. فلا عجب إن استمر الحال على هذا النسق أن نشهد تطورات تطول مجال الروائح وصناعة العطور مثل :

1- الواقع الافتراضي VR :
إذ من المتوقع دخول الروائح كمعزز للكثافة الحسية في محتوى الواقع الافتراضي، وأولى القطاعات المستفيدة ستكون القطاعات العسكرية والطبية لتساعد في إعداد برامج محاكاة مكثفة للمتدربين للتكيف مع روائح البارود والحرائق والجثث.

2- صوت العملاء :
شهدت العشرون عاماً الماضية تقلبات في جودة صناعة العطور، مع زخم في كمياتها المطروحة في السوق. مما أدى إلى تهاون بعض الشركات في جودة مكونات عطورها لتقليل التكلفة ورفع هامش الربح في مطلع الألفية الثانية. وفي المقابل لم تشهد البشرية سهولة وسرعة في التعبير عن الرأي على جميع الأصعدة - بما فيها العطور - بالقدر الذي تراكم على شبكة الإنترنت في العشرة أعوام الماضية. فلا عجب أن ترى مدى الأثر التدريجي اليوم على مُصنعي العطور من الارتقاء بجودة المنتج، والاهتمام بتصميم الأغلفة والزجاجات، ومدى سرعة تلقي الانطباعات الأولية في غضون ساعات من العملاء مباشرة بعد طرح عطر جديد. ومن وجهة نظري المتواضعة أرى أن شبكة الإنترنت ساهمت في تقريب التواصل بين المصنع وشريحة العملاء المستهدفة، وأرى أنها ستظهر المزيد من شركات العطور الجديدة التي تقدم عطوراً ذات جودة فاخرة وبأسعار تنافسية.

3- علم الجينات :
كما ذكر عالم الفيزياء الحيوية لوكا تورن في كتابه "سر الرائحة" أن أي رائحة نشمها مكونة من أحد هذه العناصر : كربون، هيدروجين، أوكسيجين، نيتروجين، كبريت. والفارق بين روائح المواد هو كيفية ترابط هذه العناصر واهتزازها كجزيء.
هذه العناصر الكميائية هي اللغة الأبجدية التي تكتب بها جميع الروائح البسيطة والمعقدة كالعطور، والتي يسميها بـ (القصائد الكيميائية)، ومع علمنا بذلك تظل مهمة توقع نجاح عطر ما أو فشله مهمة صعبة جداً، قد يكون مفتاح حلها خاضعاً لمدى تطور الأبحاث في هندسة الجينات وقدرتها على التنبؤ بالروائح المحببة لأعراق البشر المختلفة. فإن تحققت هذه التوقعات فستحدث ثورة هي الأهم من وجهة نظري المتواضعة في عالم تسويق وإنتاج الروائح حول العالم.
عزيزي القارئ في نهاية هذا الموضوع أتمنى أنت تكون قد قضيت وقتا ماتعا في هذه لرحلة المختصرة في عالم الروائح والعطور، سائلًا المولى عز وجل أن يرزقنا حب الجمال، وحب كل عمل يقرب إلى حبه.

قد تخلو الزجاجة
من العطر يوماً ..
لكن تبقى رائحته
باقية فيها ..
تماماً كما تبقى
الذكرى الطيبة
للأحباب في القلب !

الهولوكوست الأدبي

فاطمة محمد | العَنقاء
كاتبة مهتمة بالأدب والفكر

كابوسٌ غريبٌ أيقظ الأميرة الفينيقية الحسناء "أوروبا" فتقرر عدم العودة إلى النوم والذهاب إلى الشاطئ برفقة وصيفاتها، يراها "زيوس" كبير آلهة الأوليمب ويعقد العزم على اختطافها، ينزل إلى الأرض متقمصاً هيئة ثور وديع، لا تلبث أوروبا أن تُعجب به وتمتطي ظهره، فيعدو مسرعًا باتجاه الغرب، ويدخل في عباب البحر.

بهذه الأسطورة الوثنية الإغريقية تبدأ قارة أوروبا تاريخها القديم، حيث الجذور الآسيوية والوطن الشرقي، وتبدأ معها أيضاً سلسلة الاختطافات "الأوروبية" للشرق، وإن اختلفت صُورها.

وسوف نقف برواحلنا عند نموذجٍ من هذه الاختطافات، رغم كونه اختطافاً "ناعماً" وخفياً وهو الأدب، وبشكل أخص الرواية.

لقد استقرّ في أذهان الكثيرين أن الرواية لا تعدو كونها متعةً تُزجى بها أوقات الفراغ، أو فواصل ترويحية لقراءة الكتب، وأحيانًا للحصول على قدرٍ من المعلومات بشكل لطيف، وربما يحصل نوع جدال إن أُسند إلى الرواية غير ذلك.

بيد أن هذه الرواية ساهمت في تكوين امبراطوريات، واسترقاق أمم، وتأليه أقوام، بل ومحو شعوب من على وجه البسيطة.

فالأدب لا يمكن أن يُبتر عن التاريخ والمجتمع، إن الاستقلال الذاتي المزعوم للأعمال الأدبية والفنية يقتضي نوعاً من الفصل، يفرض محدوديةً مُضجرةً تأبى الأعمال الأدبية نفسها أن تقوم بفرضه.[1]

فقد استعانت السلطات الكولونيالية (الاستعمارية) بذخيرة من الروايات وأدب الرحلات لتسوّغ احتلالها لأراض الآخرين، ولتتماهى شعوبها مع ذلك وتقوم بدورها في الاحتلال.

يُشدّد إدوارد سعيد : "لستُ أسعى إلى القول بأن الرواية - أو الثقافة بالمعنى الواسع - قد سبّبت الإمبريالية (أي التحكم والتسلط على الغير)، بل إن الرواية من حيث هي مُصنَّع

ثقافي من مُصنّعات المجتمع الطبقوسطي والإمبريالية : غير قابليْن للخطور بالبال منفصلتيْن إحداهما عن الأخرى".[2]

> فقد استعانت السلطات الكولونيالية (الاستعمارية) بذخيرة من الروايات وأدب الرحلات لتسوّغ احتلالها لأراض الآخرين، ولتتماهى شعوبها مع ذلك وتقوم بدورها في الاحتلال.

ويقول هومي بابا : "الخطاب الكولونيالي هو جهاز يُدير معرفة الاختلافات العرقية/ الثقافية/ التاريخية وإنكارها. وتتمثّل وظيفته الاستراتيجية المسيطرة في خلق فضاءٍ لـ "شعوب خاضعة" عبر إنتاج معارف تُمارِس من خلالها المراقبة، ويُثار شكلٌ معقّد من اللذة/ التنغيص. وهو يسعى إلى إقرار استراتيجياته عن طريق إنتاج معارف بالمُستعمِر والمُستعمَر قائمة على الصور النمطية، لكنها تُقوَّم وتُثمَّن على نحوٍ متضاد ومتناقض. أما غاية "الخطاب" الكولونيالي فهي أن يؤوِّل المُستعمرَين بوصفهم شعوبًا من أنماط منحطة بسببٍ من أصلهم العرقي، وذلك لكي يُبرّر فتح هذه الشعوب، ولكي يقيم بين ظهرانيها أنظمة الإدارة والتوجيه. "فالخطاب" الكولونيالي يعمل عبر رسمه حدود أمة خاضعة على تعديل مجالات النشاط المتنوعة لهذه الأمة وتوجيهها والسيطرة عليها.[3]

لقد مهّد النتاج الأدبي الأرضية للاستعمار، فيما ساهم لاحقًا في تثبيتها وتكثيفها، وإنّ نظرةً في الميراث الروائي السابق والمزامن لتكوّن إمبراطوريات ما وراء البحار الأوروبية، والبريطانية والفرنسية على وجه الخصوص، لتكشف عن حجم الخيال الذي كان وقودًا للهولوكوست الإمبريالي.

كانت البلدان خارج القارة الأوروبية توصف بالغرائبية، ويُدمغ أهلها بالتخلف والوثنية، وتُصور أراضيهم في صورة الخيرات المُطلقة، يوتوبيا حقيقية لا يستحقها قاطنوها، وتنتظر "المُتحضر" القادم من مغرب الشمس، ليستغل مواردها، ويأخذ بيد أهلها نحو الحضارة، ففي رواية "أرض العميان" لهيربرت جورج ويلز، يُحدث البطل نفسه مُستنكرًا وحشة أهل البلدة منه : "إنهم لا يُدركون أنهم أهانوا ملكهم وسيدهم الذي بعثته السماء لهم نعمةً ورحمة لأهديهم سواء السبيل، ولأعيدهم إلى صوابهم".[4]

ولئن احتاج الاستعمار إلى الرواية، فقد احتاجت إليه بدورها، فثمّة "عقد منفعة" بين الطرفين، فالرواية بتوغلها في عوالم نائية، استجابت لرغبات المجتمع الذي أفرز التطلعات الاستعمارية، وفي الوقت نفسه أدرجت نفسها في سياق ثقافة ذلك المجتمع، واكتسبت مكانة خاصة ؛ لكونها نوعاً جديداً يحتاج إلى شرعية أدبية. أما الاستعمار، فوجد فيها وسيلة تمثيلية مناسبة لبيان فلسفة التفاضل بشكلٍ رمزيّ وإيحائيّ، لكشف الاختلاف بين الغربيين وسواهم من الشعوب.[5]

أنّى خطّت قدما "المستكشف" الأوروبي، فسيلتقي بأقوامٍ يعيشون حياةً غريبة، تجمّد بهم الزمن، وسيأخذ الأوروبي "النبيل" على عاتقه مهمة تحضيرهم وتطويرهم.

في رواية جوزيف كونراد "قلب الظلام" يتحدّث بطل الرواية "مارلو" قائلاً :

He gripped his spade still tighter, and advanced down the meadows towards the place of habitation, and directly he moved they converged upon him. . . . They were moving in upon him quickly, gripping, yet moving rapidly. . . . It was like playing blind man's buff, with every man blindfolded except one.

رواية "أرض العميان" The Country of the Blind هي من أدب القصة القصيرة صدرت عام 1904م لهيلبرت جورج ويلز H.G. Wells وقد صاحبتها تلك الصورة المرسومة في عام 1927م عندما تم نشرها ضمن "قصص مدهشة" Amazing Stories للرسام فرانك بول Frank R. Paul وهي تصور البطل ممسكاً جاروفه أمام جموع أرض العميان.

" إن احتلال الأرض والذي يعني غالبًا سلبها من أولئك الذين يختلفون عنا في البَشَرة، أو الذين يملكون أنوفاً أكثر انبساطاً من أنوفنا، لن يكون لائقاً عندما تتمعّن فيه، ولعل الاسترسال في التأمل الباطني لذلك ما هو إلا مجرد خاطر عابر، مجرد فكرة كامنة وراء ذلك، يكون ذلك متعلقاً بادعاء عاطفي وحسب، بل إن ذلك يحتاج إلى تفكير حقيقي، وباعتقاد فعلي ضمن هذا التفكير، وحينئذٍ يكون شيئاً ذا قيمة، يمكن التعامل معه، وتنحني أمامه احتراماً، وتكون مستعداً للتضحية من أجله".[6]

وفي أول سطر من رواية ليزلي بولز هارتلي "الوسيط":

"الماضي بلدٌ أجنبي، إنهم يفعلون الأشياء على نحو مختلفٍ هناك".[7]

لقد ارتبط الاهتمام بالأشياء الغريبة والمتعلقة بالثقافات البعيدة ولا سيّما الشرقية، ارتباطاً وثيقاً بالأدب القصصي، وسرديات الرحلات البحرية، وقصص المغامرات في الأراضي "المجهولة"، حيث زوّدت الأوروبيين بـ "وعيٍ قبل موضوعاتي للعالم"، ومكنتهم من تعريف أنفسهم باعتبارهم حَملة مشاعل التحضر، وهيّأتهم لتقسيم العالم إلى الغرب والبقيّة "The west and the rest" وهذه البقيّة هي مجرد امتداد طبيعي لأوروبا.

إن الأدب، بالطبع، ليس سوى واحد من الوسائل التي تم بها بناء الإمبراطورية على نحو استطرادي. فقد شدّد توماس ريتشارد على "الأرشيف الإمبراطوري" الذي يصفه بأنه تخيّل للمعرفة المكدسة في خدمة الإمبراطورية، التي قامت بوظيفتها في تخيل الأرض التابعة للإمبراطورية كتمثيل، وتحقيقها كبناء اجتماعي، مقدمة بذلك وسيلة للاستعمار من خلال الاستفادة غير المباشرة من المعلومات.

كما شدّد بول كارتر على البناء الخرائطي للمستعمرات، واصفاً كيف أن شبكة من الأسماء تُعرّف منطقةً جغرافية بوصفها مكاناً تكون الرحلة إليه ممكنة، ويكون الاستيطان فيه وشيكاً، أو بعبارة أخرى، كيف أن المستكشفين والمسّاحين قد أوجدوا بلداً يمكن للقراء أن يتخيلوه ومن ثمَّ أن يسكنوه ؛ نظراً لأن الفضاء يتم تحويله عن طريق فعل التسمية إلى مكان.

فيما يؤكدّ إدوارد سعيد أن مصادرة التاريخ، وأرخنة الماضي، وسردنة المجتمع، وهي جميعاً تمنح الرواية قوتها، تشمل مراكمة الفضاء الاجتماعي ومماريزته، وهو فضاء يراد له أن يُستخدم لأغراض اجتماعية، وهذه السّمة أكثر وضوحاً بكثير في رواية أواخر القرن التاسع عشر الاستعمارية علناً.[8]

لقد كانت الرواية بمثابة "سِفر رؤيا" للاستعمار، وتثبيت الصورة الذهنية النمطية للشرق.

ومع مرور الزمن، تتراكم الروايات وتتحوّل إلى ما يُطلق عليه هاري لفين تسمية مفيدة هي "مؤسسة أدبية"، لكنها لا تفقد أبداً مقامها كأحداث، أو كثافتها الخاصة كجزء من مشروع مستمر يتميّزه ويقبله القراء والكُتّاب الآخرون بوصفه كذلك، لكن الروايات رغم كل حضورها الاجتماعي لا يمكن تقليصها إلى تيار علمجتماعي، ولا يمكن أن تُوفى حقها جمالياً، وثقافياً، وسياسياً، إذا عوملت كأشكال فرعية للطبقات أو العقائديات أو المصالح.[9]

عُدّت رواية "روبنسون كروزو" لدانييل ديفو - والتي نُشرت عام 1719م - المدونة السردية المبكرة التي ربطت بين : المغامرة الفردية لرجل أبيض، وتعميم الأخلاقيات الاستعمارية الرامية إلى مدّ نفوذها دينياً ودنيوياً لامتلاكها ولإدارتها والاستفادة منها.

ولقد عبّرت رمزياً عن طبيعة التوسعات الاستعمارية بصورة تتروح بين المباشرة والتضمين، فالبطل طوّر خلال عزلته في جزيرة منقطعة عن العالم، قِيمًا بروتستانتية حملها معه من إنجلترا، كما بشّرت بدور الفرد المتحضّر في عالم بدائي سوف يظلّ منسيًا إن لم يُدرج في التاريخ الذي يمثّله رجل أبيض :

"إنني ملك على كل هذه البلاد بشكل غير قابل للإلغاء، وإنني أتمتع بحق الملكية، وإذا استطعتُ نقل ملكية هذا المكان، يمكن أن أحصل عليه بالوراثة بشكل كامل كأيّ مالك مزرعة في إنجلترا".

كشف مسار حياة كروزو في تلك الأصقاع النائية مدة تزيد على ثمانية وعشرين عاماً أنه كان مسكوناً بفكرة المستوطن وليس المواطن، وهي الفكرة الملازمة للأخلاقيات الاستعمارية.

وفي مناجاته الذاتية كان يتحدّث عن "بيتي وسياجي وكوخي وببغائي وأشجاري".

ولا تكتسب فكرة السيطرة على أرض الآخرين معنىً فاعلاً بذاتها، لذا ينبغي القول بأنها مهجورة ولا بدّ من إعمارها، وهذا يلزم ظهور شخصية أصليّة غير مؤهلة تكون موضوعاً لأفكار المستعمِر، فيتحقق الهدف الذي يتوخاه بمدّ نفوذه على الأرض والبشر، فيعيد تأهيلهما وصوغهما وفق رؤيته الاستعمارية.

ولهذا اصطُنعت شخصية ساكن الجزيرة الملوّن "فرايداي" ليقع نوع من التكافؤ بين الهدف والموضوع، وتكون الخطوة الأولى أن يخلع الوافد الأبيض اسماً على الملوّن الأصلي، فيصبح معرفة بعد أن كان نكرة، وتكون أول كلمة يُلقنها له كيف يقول له بالإنجليزية "سيدي" ! فتتأسس باللغة علاقة تابع بمتبوع، علاقة عبد بسيد.

ثم يزوّده بشذرات من التعاليم الدينية، ليهدي روحه الوثنية.[10]

> الأدب القصصي وسرديات الرحلات البحرية، وقصص المغامرات في الأراضي المجهولة زوّدت الأوروبيين بـ "وعيٍ قبل موضوعاتي للعالم"، ومكنتهم من تعريف أنفسهم باعتبارهم حَملة مشاعل التحضر، وهيّأتهم لتقسيم العالم إلى الغرب والبقيّة The west and the rest وهذه البقيّة هي مجرد امتداد طبيعي لأوروبا.

صورة من أحد أغلفة الإصدارات الكثيرة للقصة والتي يظهر فيها روبنسون كروزو وأمامه "فرايدي" الرجل (الملون) كما كان الأوروبيون يصفون غيرهم من الأعراق الأخرى بالملونين.

تُطلّ صورة الشرق المترف، المتخم باللذائذ والأطباق الخيالية، النهم الذي لا يشبع في رواية "سلامبو"، فقد شحذ جوستاف فلوبير مخيلته، وأجهدها في التخيّل :

"وما لبثت أن اختفت الموائد تحت أكوام من اللحوم المتنوعة فهنا أبقار وحشية بقرونها، وطواويس بريشها، وهناك أكباشٌ بتمامها، مطهوّة بالنبيذ الحلو، وأفخاذ نياق، وجواميس، وقنافذ متبّلة، وجنادب مقلية، ونموس محلّاة بالسكر، وكل هذه الأطعمة طافحة بالكمأة، وأنواع التوابل المُشهية، وكان الشحم يُقدم في جِفان من الخشب النفيس مغموساً بالزعفران، وتلا ذلك جميعه أكداس من الثمار المتنوعة الأجناس والأصناف، نثرت على أقراص من العسل."[11]

وكذلك في رواية وليام بيكفورد "الواثق" Vathek : "جلس الخليفة ليأكل، ولكن من الثلاثمائة طبق التي كانت توضع أمامه يومياً، لم يستطع أن يتذوق أكثر من اثنين وثلاثين طبقاً" !

كما قام الروائي بإسقاط مشاعره الجنسية على الخليفة الشاب، فعلاقة الروائي غير الشرعية تتطابق مع لويزا، زوجة ابن عمه، مصورة من خلال علاقة الواثق مع نور النهار.[12]

وفي رواية تشارلوت برونتي "جين آير" نجد برثا ماسون زوجة روشستر الأولى الهندية والتجسيد شديد البشاعة للتمردية والجنسانية الأنثويتين المنفلتتين، تشوش الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان.

أما وليم شكسبير سيد المسرح الإنجليزي، فيُظهر عدداً كبيراً من المفاهيم الإنجليزية المتداولة عن الشرق في مسرحياته، ففي "تاجر البندقية" و "عُطيل"، يُقدم شكسبير شخصيتين شرقيتين، ففي "تاجر البندقية" يعكس أمير المغرب صورة الجشع والمجون، حيث إنه يختار الصندوق المذهّب ويخسر بورشيا.

وفي "عُطيل" يرتكب المغربي جريمة بربرية وهي قتل زوجته، وبذلك يكون شكسبير قد اتبع التميز نفسه المنتشر آنذاك من خلال إبراز صورة الشرقي بأفظع أشكال الوحشية والخيانة.[13]

كما أن زواج "عُطيل" و"دزدمونة" محكوم عليه بالفشل رغم اتفاقهما، وذلك بسبب انتهاكهما للنظام العرقي، وكلمات إياغو الملتهبة إلى والد "ديزدمونة" تامة الكشف عن ذلك.

[6]

وفي "رحلات جوليفر" لجوناثان سويفت يقوم جوليفر برحلات خيالية لبلدان متخيلة غريبة، فـ "ليليبوت" هي بلاد أقزام، و"برودينغناغ" أرض عمالقة، و"لابوتا" جزيرة طائرة، ويقابل في بلاد "الهوينهومس" أحصنة تتحدث كالبشر.

وفي رواية إدوارد مورغان فوستر "رحلة إلى الهند" يقوم اللقاء الاستعماري على إيروتيكية "مثلية"، أكثر مما يقوم على المجاز التقليدي للنهب والامتلاك. وفي هذا مخالفة للمجاز الاستشراقي/ الاستعماري التقليدي الذي يتصور الأرض المستعمرَة أنثى، والمستعمِر ذكراً، إذ تتجلى"المثلية" المبنية على الاختلاف العرقي.

ويقيم فلوبير في جميع رواياته رابطة بين الشرق وبين التلهّي بالخيالات الجنسية، فالسيدة "إما بوفاري" في رواية "مدام بوفاري" وفريدريك مورو في رواية "التربية العاطفية" يذوبان شوقاً إلى ما لا يتوافر لهما في حياتهما البرجوازية أو الحافلة بالمنغصات، وأما ما يدركان أنهما يريدانه فهو يعتاد أحلام يقظتهما بيسر وسهولة، مُغَلفاً داخل صور نمطية شرقية: الحريم، والأميرات، والأمراء، والعبيد، والنقاب، والراقصين والراقصات، وألوان "الشربات" وزيوت التعطير وما إلى ذلك. وذخيرة هذه الصور مألوفة. يعلق على ذلك إدوارد سعيد :

"كان الشرق هو المكان الذي يطلب فيه المرء خبرة جنسية لا تتوافر في أوروبا. ولا نكاد نرى كاتباً أوروبياً كتب عن الشرق أو سافر إليه في الفترة التي تلت عام 1800م يعفي نفسه من هذا الطلب، وما فلوبير ونيرفال وريتشارد بيرتون وإدوارد لين إلا أشهر الأسماء في هذا الصدد. وتخطر على بالنا من أبناء القرن العشرين أسماء أندريه جيد، وجوزيف كونراد، وسومرست موم... وعشرات آخرين".[14]

ورغم صغر حجم رواية "كنوز الملك سليمان" لهنري رايدر هاجرد، إلا أنها مترعة بالصور النمطية عن الشرق :

- الشرق المخبوء بالكنوز التي تنتظر الرجل الأبيض ليمتلكها : "فراحت تغريني بكنوز أجدادها المخبأة، وبجبل من الذهب والمجوهرات".
- يسكنه أقوامٌ همجيون وثنيون لا يستحقون كنوزه : "وسط قوم من أنصاف البرابرة" ، "اهربا، انجُوَا بنفسيكما من هؤلاء المتوحشين".
- يعتقدون بالخرافات : "يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن تدمير هذا المعبود هو أمرٌ بالرحيل".
- لهم أسماء الحيوانات : "وأخبرنا القط قائد قافلتنا".
- احتقار المرأة الشرقية وتراثها وأنها غير قابلة للتمدن أو عصيّة عليه وإن تزوجت من أوروبي : "على الرغم من احتفاظها بطابعها الشرقي".

- التفوق العرقي للإنجليز : "توفي عمي في جنوب أفريقيا، واليوم علمتُ أنه كان قد تزوج من امرأة أدنى منه مرتبة".

- خنوع الشرقيين وجبنهم وخضوعهم ورضاهم بالعيش الدنيء : "ثم إن رجالها قد فقدوا الكثير من شجاعتهم وبأسهم، وأنهم قد استكانوا للعيش في أرضهم الخصبة حتى يوافيهم الأجل وتطوى صحائفهم".

- خضوعهم باللفظ للإنجليز يكون دليلاً على نبلهم : "فخاطبته في لهفة تشف عن توجهها النبيل : ماذا حدث يا سيدي؟"

- شجاعة الإنجليز في المقابل لا يمكن أن يتطرق إليها الشك : "جبناء! كيف تجرؤ على هذا القول أيها القذر؟ انظر إلى هذا الجاويش، إنه خادمنا وأقلنا شأناً، ولكن ما بإصبعه الصغير من شجاعة يفوق ما تحمله منها قلوب قبيلتك كلها".

- الكرامة صفةٌ ملازمة للإنجليزي، وإن كلفته حياته : "وبدا لحظة وكأنما سيطلق ساقيه للرياح فرارًا، إلا أن كرامته - على الأرجح - قد منعته من ذلك، فقد توقف بغتة، وعقد ساعديه أمام صدره، بعد أن أرخى قبعته على وجهه، ووقف ينتظر هجوم الأسود في بسالة".

- لا يمكن للشرقيين بناء حضارة أو مدنية : "وعلى مقربة منها ما يشبه مدنيات أو قرى صغيرة، من المستحيل أن يشيدها أو يقطنها الهمج أو البرابرة".

- الشرقيون خبثاء ماكرون لا يمكن الوثوق بهم إن لم يكونوا خانعين : "لستُ أثق عادة في القط الذي يبرز مخالبه هكذا، فذلك الرجل يبدو لي ماكرًا خبيثًا يكره البِيض ويتمنى لو نهلك قبل عودتنا من المور".

- الإنجليزي ذو قلب أبيض لا يعرف الحقد ولا الضغينة على أعدائه : "وصحبه هيجز ليدلل على صفاء نيته وطيب طويته تجاهه".

- الشرق أرض سابقة للغرب، ولذا لا ضير عليهم في استرجاعها : "فوقع بصري على أعلام الأباتي الخضراء وعليها تلك الكتابات العبرانية، تتوسطها صورة عرش سليمان".

- بقايا أسلافهم الذين لا زالوا على هذه الأرض هم أهل الجمال والشهامة والحضارة : "لقد رأى أمامه حوريةً من حوريات الجنة، رأى أمامه حفيدة سليمان" ، "هؤلاء الذين أنقذوني من الأسر هم أبناء قبيلة أباتي التي تعيش في مدينة المور، وقد نالوا نصيباً موفوراً من المدنية".

- يقتلون ويبيدون دفاعاً عن النفس فقط : "ويؤسفنا أن اضطررنا لقتل عددٍ من رجاله؛ دفاعاً عن أنفسنا".

- جهلهم بالطب والعلوم، عكس الإنجليز البارعين : "أما طبيبها فقد راح يتبارى معي في وصف أنواع من الدواء والعلاج، لو تناول منها الكابتن جرعة واحدة لقضى نحبه على الفور، لولا أن رحتُ أستبدل بها أنا أدوية أخرى منطقية".

- شهوانية النساء الشرقيات وإعجابهن بالأوروبيين : "ولم تقوَ الملكة على كتمان سعادتها وسرورها بشفاء الكابتن، وراحت توليه المزيد من العطف والحنان، حتى أنه لم يكد يغادر فراشه سليمًا معافى حتى راح يختلي بها كثيراً، ويتبادل معها الأحاديث الهامسة".

- الشرق والثراء الأسطوري : "جلست على عرش من ذهب، ينتهي ذراعاه برأسي أسدين، وهي ترتدي ثوباً من خيوط الفضة اللامعة، وتُخفي وجهها بقناع مُوشى بنجوم فضية، وقد أحيطت قمة رأسها بدائرة من الذهب، تتوسطها ياقوتة حمراء ساطعة".

- في وصف يذكرنا بمشاهد العنف والوحشية في "موت سردنبال"، يُصوِّر الشرق الدموي : "بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجري، يعلوها تاج من الذهب، وأمام العرش صولجان وخواتم وحُلي من الذهب والمجوهرات، وحوله عدد ضخم من العظام والجماجم البشرية، أسفل كل منها الحُلي التي كان يتزين بها أصحابها في الدنيا، وإلى جوارها أوان من الذهب، تكتظ بالحُلي والقلادات والأحجار الثمينة، وأكوام من نقود فضية وذهبية قدم عهدها، وبطل تداولها، ولما رأتنا مدهوشين مشدوهين قالت: الجالس على العرش هو الملك، وحوله ضباطه وحراسه ونساؤه، وقد ذُبحوا إلى جوار جثته، ليسهروا على رعايته في الحياة الأخرى، وهذه حُليهم ومجوهراتهم".

- احتقار ثقافة الآخر واستنكارها بما أنها خالفت معيار المركز : "أيُّ خير في أمة يعاقب مجرموها بالجندية بدلاً من السجن".

وفي نهاية الرواية، تشهد "نيرون الشرق" حريق مملكتها وشعبها،

فتتركهم لقدرهم وتلتحق بالإنجليز، لتصلصل كلمات سبيفاك : "رجال بِيض يُنقذون نساء سمراوات من رجال سُمر".[15]

ختاماً، ما سبق ليس دعوة لقراءة الروايات والاكتفاء بها، بل دعوة للتبصّر وإدراك أهميتها في تشكيل الوعي المجتمعي، وقراءتها بعين الناقد، وتحليلها وفق المعطيات التاريخية والمعاصرة، فحين نقرأ الروايات - كما قال إدوارد سعيد - بتيقظ، تتشكل لدينا صورة أشدّ تمييزاً ورهافة بكثير من الرؤية "الكونية" و "الامبريالية" إلى حدّ الجرأة.[16]

المراجع :

[1] الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، ص 85.
[2] المرجع السابق، ص 139.
[3] موقع الثقافة، هومي بابا، ص 141-142.
[4] أرض العميان، هربرت جورج ويلز، ص 162.
[5] التخيّل التاريخي، عبد الله إبراهيم، ص 260.
[6] قلب الظلام، جوزيف كونراد، ص 12-13.
[7] GO – BETWEEN. P 15 "pdf", L. P. HARTLEY
[8] الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، ص 146.
[9] المرجع السابق، ص 142.
[10] التخيّل التاريخي، عبد الله إبراهيم، ص 264-261.
[11] سلامبو، جوستاف فلوبير، ص 26.
[12] الاستشراق، ضياء الدين سردار، ص 86.
[13] تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي، ناجي عويجان، ص 33.
[14] الاستشراق، إدوارد سعيد، ص 304-305.
[15] كنوز الملك سليمان، هنري رايدر هاجرد.
[16] الثقافة والامبريالية، إدوارد سعيد، ص 144.

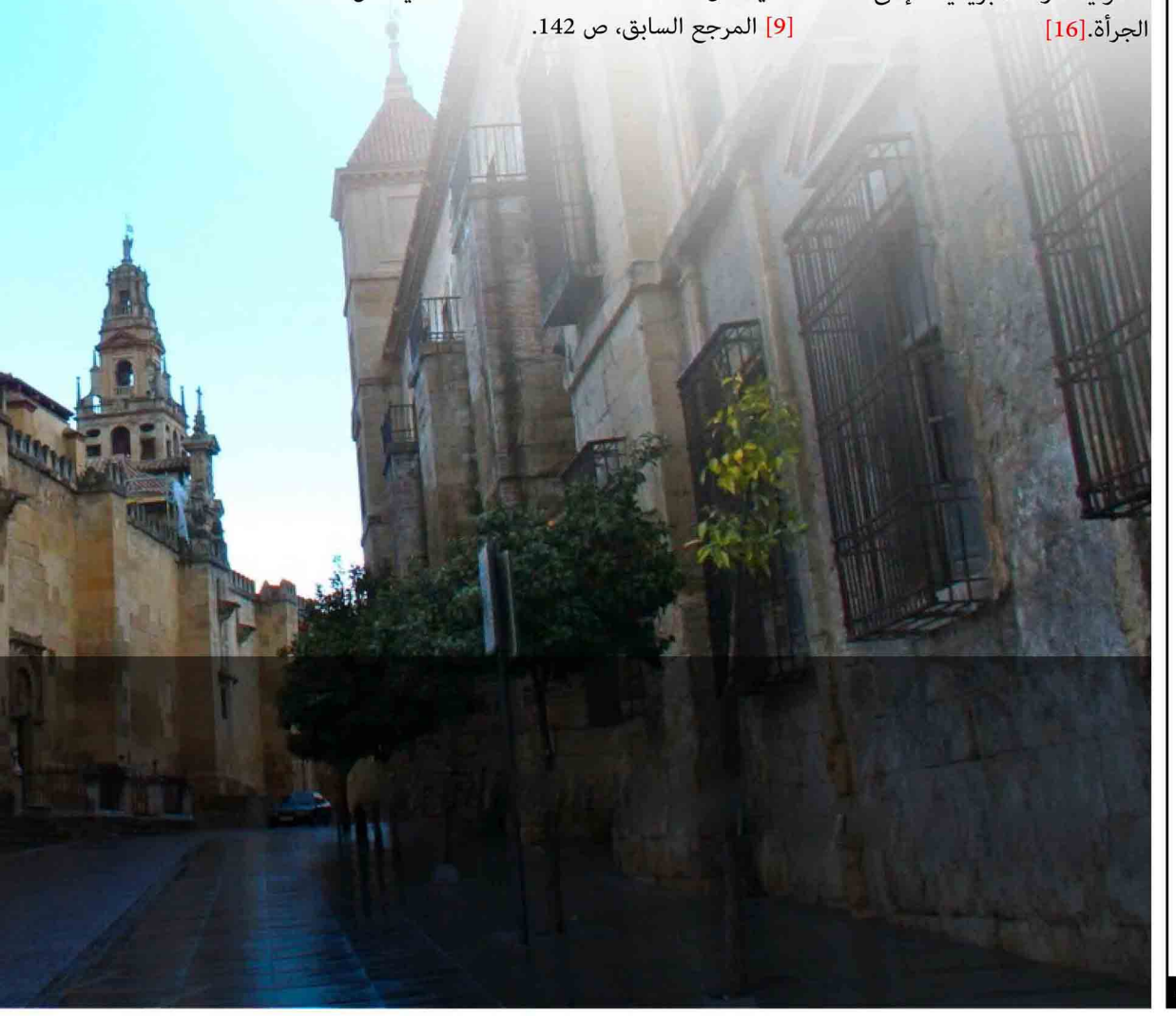

يقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) ترجمة عادل زعيتر ص ١٢٧-١٢٨ :

" وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد تَرك العربُ المغلوبينَ أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلامَ واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لِما رأوا من عدل العرب الغالبين، ما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين، ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل. وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرَض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس، فضَّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرِهم على ترك الإسلام. ولم ينتشر القرآن بالسيف إذًا، بل انتشر بالدعوة وحدَها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب ... إلى قوله : وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، عن طريق التجار المسلمين لا عن طريق السيف "

Gustave Le Bon,
La Civilisation
des Arabes

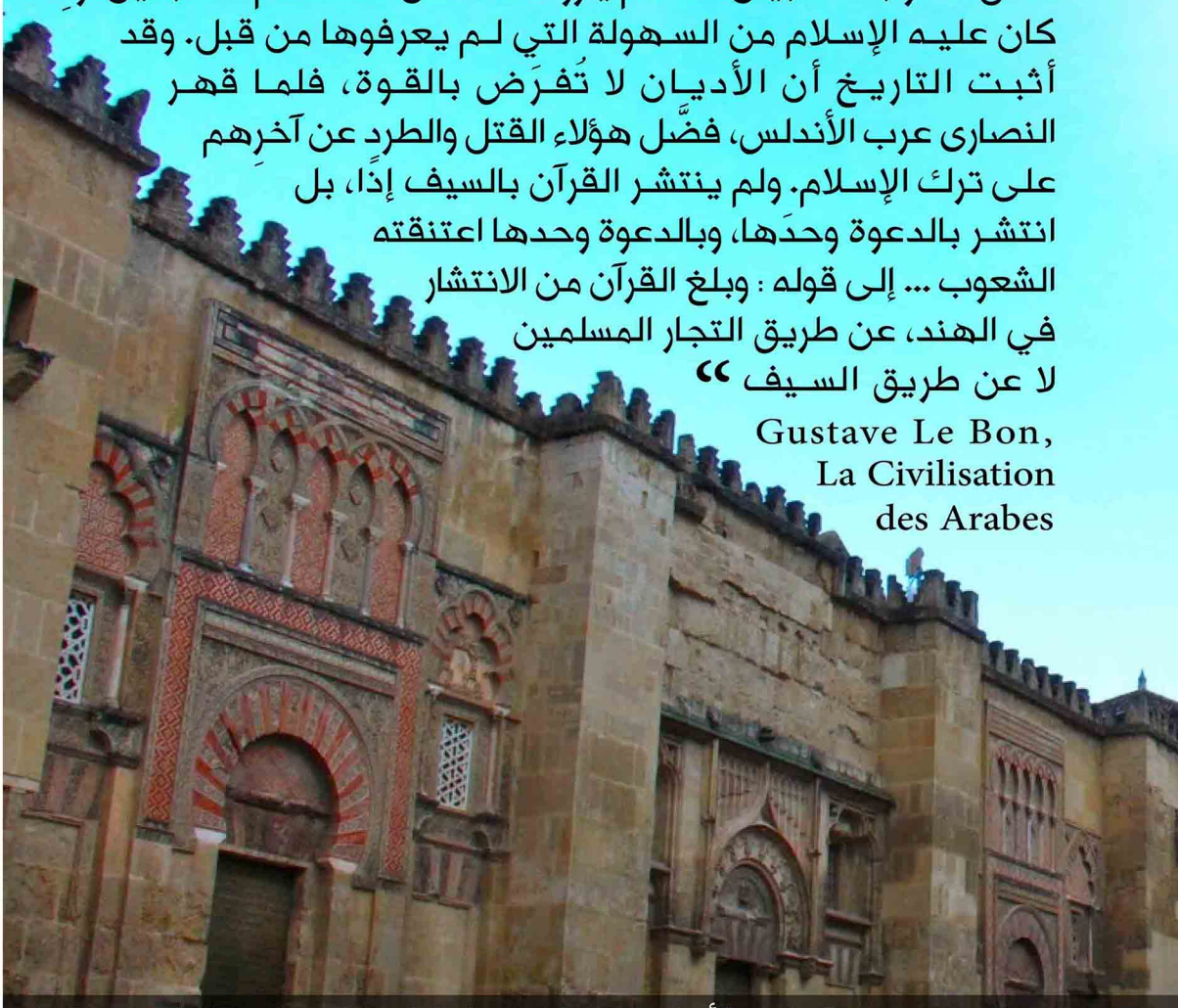

صورة من مدينة قرطبة بالأندلس لا تزال تحمل الطابع الحضاري الإسلامي .. يقول الكاتب الإسباني فيسينت بلاسكو إيبانيز في كتابه (ظل الكاتدرائية) :

" إن الأسباب التي أعادت إلي إسبانيا حيويتها وجددت شبابها, لم تصلنا عن طريق الشمال مع القبائل البربرية, وإنما جاءت من الجنوب مع العرب الفاتحين.... إلى قوله : لقد كان الفتح العربي بعثة مُمدِّنة أكثر مما كان فتحاً "

V. Blasco Ibanez, The Shadow Of The Cathedral, Ch. 6, p. 181

الفيزياء الحديثة وأدلة وجود الله

عبدالحكيم محمد النقيدان
طالب دراسات عليا في الفيزياء النظرية

تخيل أنك دخلت غرفتك المغلقة منذ يومين فإذا بك تفاجأ بأن هناك طبقٌ من الطعام موضوعاً على الطاولة، وعندما تفحصت هذا الطبق وجدت أنه ساخن مما يعني أن هناك شخصٌ ما دخل غرفتك حال غيابك ووضعه بما لا يزيد عن الساعة تقريباً، وعندما فتحت هذا الطبق وجدت فيه طعامك المفضل الذي تحب ! ستستنتج من هذا الحدث أمرين، الأول أن غرفتك المغلقة تم فتحها قبل ساعة، والثاني : أن من فتحها إنسان عاقل ذكي لديه معرفة عنك.

هذا المثال البسيط ربما يوضح ما نحن بصدد الحديث عنه في هذا المقال عندما أشارت الكشوف العلمية الحديثة إلى ظهور هذا الكون للوجود منذ قرابة 13,7 مليار سنة عبر تفجّر هائل (المليار = ألف مليون)، وأن هذا التفجّر تم بطريقة فائقة الدقة والضبط تضمن توفر الظروف الملائمة لوجودنا.

كيف دعمت الفيزياء الحديثة أدلة وجود الله ؟

من أشهر الأدلة العقلية على وجود الله :

1- دليل الحدوث، أو ما يسمى في الثقافة الغربية بالحجة الكونية :

The Cosmological Argument.

2- دليل الإتقان أو ما يسمونه بحجة التصميم :

The Design Argument.

وهذان الدليلان رغم قدمهما وبساطة مقدماتهما إلا أنهما من أقوى الأدلة العقلية على وجود الله، ومنذ القرن الماضي جاءت الفيزياء الحديثة لتعزز معطيات هذين الدليلين تعزيزاً لم يسبق له مثيل، فالدليل الأول دعمه القانون الثاني للديناميكا الحرارية ونظرية الانفجار العظيم Big Bang Theory، والثاني دعمته فكرة الضبط الكوني الدقيق Fine-Tuning.

حُجة الحدوث

هذه الحجة عمل على شهرتها حديثاً الفيلسوف الأمريكي ويليام لان كريغ بعدما أخذها من التراث الإسلامي وأسماها (الحجة الكلامية الكونية) :

Kalam cosmological argument وهي تتكون من مقدمتين ونتيجة :

- المقدمة الأولى : كل حادث له بداية فلابد له من مُحدِث.

- المقدمة الثانية : هذا الكون حادث وله بداية.

- النتيجة : هذا الكون لابد له من مُحدِث أعظم منه وخارجه، وبتعميم هذه القاعدة ومع استحالة تسلسل الأسباب إلى مالانهاية : فلا بد من وجود مُحدث أزلي (أي موجود دوماً وأزلاً بلا بداية) ولذلك لا تنطبق عليه قاعدة كل حادث له بداية لا بد له من مُحدِث. وبذلك نصل إلى الإيمان بالخالق الذي هو الله عز وجل.

فما أضافته الفيزياء الحديثة في هذا العصر هو تقديمها أدلة تجريبية مادية تدعم المقدمة الثانية (وهي أن هذا الكون بدأ في لحظة معينة) وأنه ليس كوناً أزلياً ممتداً في الماضي كما كان التصور السائد سابقاً خصوصاً في الثقافة الأوروبية المتأثرة ببقايا الفلسفة اليونانية. وقد بدأت فكرة وجود بداية للكون عندما صاغ علماء الفيزياء في القرن التاسع عشر قوانين الديناميكا الحرارية والتي تحدد سلوك وخواص انتقال الطاقة.

حيث يقرر القانون الأول أن الحرارة تنتقل من الجسم الساخن إلى البارد - وليس العكس - حتى يصل الجسمان إلى حالة الاتزان الحراري، وهذا يعني أنه لو كان الكون أزلياً فإنه يجب أن يكون قد وصل إلى حالة الاتزان الحراري، لذلك لا بد أن الكون ليس أزلياً.

أما القانون الثاني فينص على أن الاضطراب (الانتروبي) Entropy لنظام مغلق - مثل هذا الكون - يتزايد ولا يتناقص مع مرور الزمن (ويرمز لزيادة العشوائية والتفكك مثل نقطة حبر في الماء أو فقدان حرارة كوب ساخن إلى الهواء). وهي عملية طبيعية تتم بتلقائية دون التدخل من أحد أو بذل شغل لفعلها، فأنت عندما تترك غرفتك لفترة طويلة، فإنها تبدأ تلقائياً بفقدان سماتها تدريجياً مع مرور الزمن، فطلاء الجدران مثلاً يبدأ في الشحوب والتساقط، أيضاً أعمدة السرير الحديدية تبدأ في الصدأ والتآكل، والخشب كذلك يصبح رقيقاً ويبدأ في التكسر، ولن تستعيد الغرفة شكلها السابق من نفسها أبداً، بل يجب أن تتدخل أنت وتقوم بترميمها (أي تبذل طاقة وشغل خارجي). ونحن نلاحظ أن كوننا الآن يتجه إلى المزيد من الاضطراب والعشوائية (أي يتجه إلى زيادة الانتروبي) الأمر الذي يدل على

وجود بداية له ذات انتروبي منخفض.

أما الدليل الثاني على حدوث الكون فقد ظهر في بدايات القرن العشرين، حيث بدأ عندما صاغ أينشتاين نظريته في النسبية العامة، ووجد أن الكون يجب أن يكون في حالة تمدد مستمر وليس ساكناً، لذلك قام بتعديل حساباته وأضاف ثابتاً رقمياً لمعادلاته سماه الثابت الكوني من أجل أن تتسق معادلاته مع فكرة الكون المستقر الأزلي :

Steady State Theory والتي كانت هي النظرية السائدة آنذاك - وهذا أحد أكبر أخطائه كما اعترف بنفسه بعد ذلك -. ثم تلا ذلك اكتشاف ظاهرتين طبيعيتين أحدثتا ثورة على فكرة الكون المستقر وهما :

1- ظاهرة انزياح طيف الأجسام السماوية البعيدة نحو اللون الأحمر - على يد الفلكي إدوين هابل - وهو ما يدل على أن الأجرام السماوية في حركة تباعد مستمر. وأما الظاهرة الثانية فهي اكتشاف الأشعة الميكرو-ويفية التي تملأ الكون، والتي وجد العلماء أنها من بقايا الانفجار العظيم الذي وقع في بداية الكون.

وقد أدى هذان الاكتشافان إلى استبعاد نظرية الكون المستقر والتي تتضمن أزلية الكون، واستبدالها بنظرية الانفجار العظيم.

تقول نظرية الانفجار العظيم أن الكون (بما فيه من زمان ومكان) بدأ من نقطة واحدة تسمى متفردة Singularity. حيث كان الكون كله (بما فيه أنا وأنت والأرض والنجوم) متركزاً ومضغوطاً في تلك النقطة الصغيرة بكثافة عالية جداً، والتي في لحظة ما منذ قرابة 13,7 مليار سنة انفجرت بدرجة حرارة عالية جداً - تقدر بعشرة مليار درجة مئوية في الثانية الأولى - وتمددت لينشأ عنها كوننا الجميل.

ورغم أن هذه النظرية كانت غير مُحبذة من قبل الفيزيائين في بادئ الأمر نظراً لحمولتها الفلسفية والميتافيزيقية (أي الخارجة عن العالم المحسوس)، إذ مع إقرارها بأن للكون بداية فإن هذا يؤدي إلى فتح صندوق من الأسئلة من قبيل : من الذي بدأه ؟ من أين جاءت مادته ؟ لماذا بدأ في تلك اللحظة بالذات لا قبلها ولا بعدها ؟ وغيرها من الأسئلة المزعجة للوسط العلمي الذي يحاول البعض فيه استبعاد أي مبحث ما وراء العالم المادي أو المحسوس. إلا أن نظرية الانفجار العظيم هي النظرية السائدة الآن عند الفيزيائين في هذا العصر نظراً لوجود أدلة كثيرة تدعمها. ويعبر الفيزيائي الملحد ستيفن هوكنج عن حالة الاستياء هذه بقوله : "كثير من الناس غير سعداء بفكرة وجود بداية للكون، فهي تعني وجود موجود فوق طبيعي خلق الكون. لقد فضلوا أن يؤمنوا أن هذا الكون والبشر أزليين". [1]

لذلك نجد أن بعضهم حاول الالتفاف على نموذج حدوث الكون بافتراضات متعددة - مثل وجود عدة انفجارات متعاقبة لا متناهية (وهو نموذج الكون المتذبذب) من أجل الحفاظ على أزلية الكون، لكن لا تزال هذه الفرضيات غير قابلة للاختبار والفحص، بل هي عاجزة عن إثبات أزلية الكون كما يقول عالم الفيزياء الكونية ألان غوث : "رغم كل الجهد الذي بذله علماء الفيزياء لبناء بديل، إلا أن كل النماذج لها بداية". [2]

حجة التصميم

يسمى هذا الدليل في التراث الإسلامي بدليل العناية، وهو يقرر أن هذا الكون مُسخر ومُقدر من أجل الوجود الإنساني الواعي، أو كما يقول فريمان دايسون :

"كلما فحصت الكون أكثر ودرست تفاصيل بنائه، وجدت دلائل متنامية على أن الكون بمعنى من المعاني يعلم أننا قادمون". [3]

وهذا الدليل ينطلق من فكرة أن ذلك الوجود فيه من مظاهر الإتقان والتعقيد والدقة والجمال والضبط ما يدل على أنه مُقدر لغاية وهدف (وهو معنى كلمة التصميم المراد هنا)، حيث لا يمكن له أن ينشأ بالصدفة، فالصدفة لا يمكن لها أن تنتج تركيباً منظماً أو غائياً كهذا الذي نراه أمامنا، لذلك لابد أن صانعاً خلفه : فائق العلم والقدرة، وهنا نستحضر المثال اللطيف الذي قدمه وليام بيلي في كتابه صانع الساعات، حيث يقول : "لنفترض أنك تمشي في البرية ووجدت ساعة ملقاة على الأرض، فإن الساعة بتعقيدها ودقة صناعتها تجبرك على الاعتقاد أنها لها صانع صنعها لغرض وقصد".

عندما حسب عالم الفيزياء الفلكية الشهير لي سموليان Lee Smolin احتمالية تكون النجوم في كوننا، وجدها 1 إلى 10 أس 229 (يعني 1 وأمامه 229 صفراً وهو رقم مهول للغاية يُعبر عن مدى دقة الكون) فقال معلقاً على ذلك :

” في رأيي، احتمالية بهذه الدقة ليست شيئاً يمكننا تركه بغير تفسير، من المؤكد أنه لا فِعل للحظ هنا، نحن بحاجة إلى بعض التفسير العقلاني لكيفية تحول هذا الأمر غير المرجح إلى التحقق “

“ In my opinion, a probability this tiny is not something we can let go unexplained. Luck will certainly not do here; we need some rational explanation of how something this unlikely turned out to be the case ”

Lee Smolin 1999, p. 45

لقد جاءت الفيزياء الحديثة لتُدعّم معطيات هذا الدليل دعماً لم يسبق له نظير، حيث أن دراسات نشأة الكون وما يحويه من مظاهر معقدة كالكائنات الحية أظهرت أن الشروط الأولية (أي القوانين والثوابت الفيزيائية) التي وجدت مع نشأة الكون تتطلب دقة فائقة جداً في وضعها وضبطها، وأن أي خلل ولو كان طفيفاً في تلك القوانين والثوابت فإنه سيؤدي إما إلى عدم نشوء الكون بالكلية، أو إلى نشوئه نشأة لا تسمح بظهور الحياة فيه.

فمثلاً ؛ لو كانت سرعة الاتساع الكوني في الثانية الأولى بعد الانفجار أبطأ من قيمتها بمقدار جزء من مليار مليار جزء لانهار الكون على نفسه بسبب قوة الجاذبية ولم يظهر إلى الوجود، ولو كان أسرع قليلاً لتناثرت مادة الكون وتشتتت ! كذلك نجد أن عدد الإلكترونات والبروتونات في الدقائق الأولى من الانفجار العظيم مضبوط بدقة كبيرة جداً بحيث لو زاد أو نقص لما نشأت مادة الكون ! أيضاً درجة حرارة الكون مضبوطة بدقة كبيرة في اللحظات الأولى للانفجار حتى تضمن تشكيل أهم عنصرين في هذا الكون وهما : الهيليوم والهيدروجين. كذلك هناك ما يسمى بالثوابت الكونية (مثل ثابت الجاذبية، ثابت بلانك، سرعة الضوء، كتلة الإلكترون وغيرها) نجد أنها ذات قيم محددة جداً. فمثلاً يقول الفيزيائي النظري الاسترالي برندون كارتر : "أنه لو تغير ثابت الجاذبية بمقدار واحد على عشرة ديوديسلون (1 ديوديسلون = 1 أمامه 39 صفراً) لما كانت الشمس موجودة، ولما أصبحت الحياة على الأرض ممكنة".[4] وهناك أمثلة كثيرة جداً على هذا الضبط والدقة (للاستزادة : راجع كتاب "فقط ستة أرقام" لـ مارتن ريس - ترجمة ونشر مركز براهين، وكتاب "الصنع المتقن" لـ مصطفى نصر قديح - نشر مركز دلائل).

وسوف أضرب مثالاً لعله يقرب الصورة ؛ تخيل أنك تريد أن تركّب جهازاً يتكون من عشر قطع، وكل قطعة موجودة في حقيبة مقفلة برقم سري لا تعرفه مكون من ثلاث خانات، ويجب عليك أن تفتح الحقائب العشرة كلها من أول محاولة فقط وتخرج قطع الجهاز وتقوم بتركيبها مباشرة وإلا فشل الجهاز. كم ستكون احتمالية نجاحك في هذه المهمة ؟ لا شك أنها ضئيلة جداً، فنسبة نجاحك في الحقيقة تساوي واحد من تريليون تريليون محاولة (التريليون = مليون مليون) !

والآن... تخيل أن هذا الجهاز يتكون من 400 قطعة، وكل قطعة موجودة في حقيبة مقفلة برقم سري لا تعرفه مكون من 3 خانات، وعليك أن تتمكن من إيجاد الرقم السري لكل حقيبة وفتحها كلها من أول محاولة فقط لتركيب الجهاز ! كم هي شبه مستحيلة أن تتم هذه العملية في الحقيقة. فأنت سوف تحتاج إلى عدد من المحاولات يساوي الرقم : واحد وأمامه 120 صفراً ! وهذا الرقم أكبر من عدد كل جسيمات الكون كله بـ تريليون تريليون تريليون مرة ! هذا تقريب مبسط في الحقيقة لموضوع الثوابت الفيزيائية التي ظهرت قيمها مع بداية نشأة هذا الكون. طبعاً نحن نتكلم عن احتمال نشوء الثوابت الكونية فقط، ولم نتطرق لاحتمال نشأة الحياة في هذا الكون بالصدفة والتي تفوق هذا الرقم بما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

وكما أن بعض الملحدين حاول الهرب من فكرة حدوث الكون كما ذكرنا آنفاً، فإنهم حاولوا أيضاً التقليل من شأن الثوابت الكونية وحاجتها لمصمم، وذلك بافتراض نسخ متعددة لانهائية من الأكوان التي تظهر بالصدفة، وكل كون لديه ثوابته و قوانينه الفيزيائية الخاصة به، وأن كوننا هذا أحدها، لذلك لا حاجة لمصمم، بل الأمر كله مجرد صدفة (سعيدة الحظ) كما يعبر أحدهم ! ولا شك أن هذا الافتراض غير علمي أولاً - نظراً لعدم قابليته للاختبار - وفي نفس الوقت هو لا ينفي الحاجة لإله أيضاً. ولا يخفي الملحدون في الحقيقة امتعاضهم من وجود مثل هذه الثوابت الدقيقة للكون، حيث يقول عالم الجينات الشهير فرانسيس كولينز أن كبير الملحدين ريتشارد دوكنز اعترف له في محادثة أنه "منزعج من فكرة الضبط الدقيق للكون" ويرى أنها "صعبة التفسير" ! [5]

كذلك يعلق الفيزيائي الملحد الشهير ستيفن وينبرغ عن هذا الأمر بقوله :

"لا ينبغي لأحد أن يستهين بالورطة التي نحن فيها" ! [6]

يعترف عالم الفضاء والرياضيات الملحد فريد هويل Fred Hoyle قائلاً :

" فرصة الحصول على بروتين واحد وظيفي بالصدفة من الأحماض الأمينية تشابه نظاماً شمسياً مليئاً برجال عميان يتوصلون لحل مكعب روبيك في نفس اللحظة "

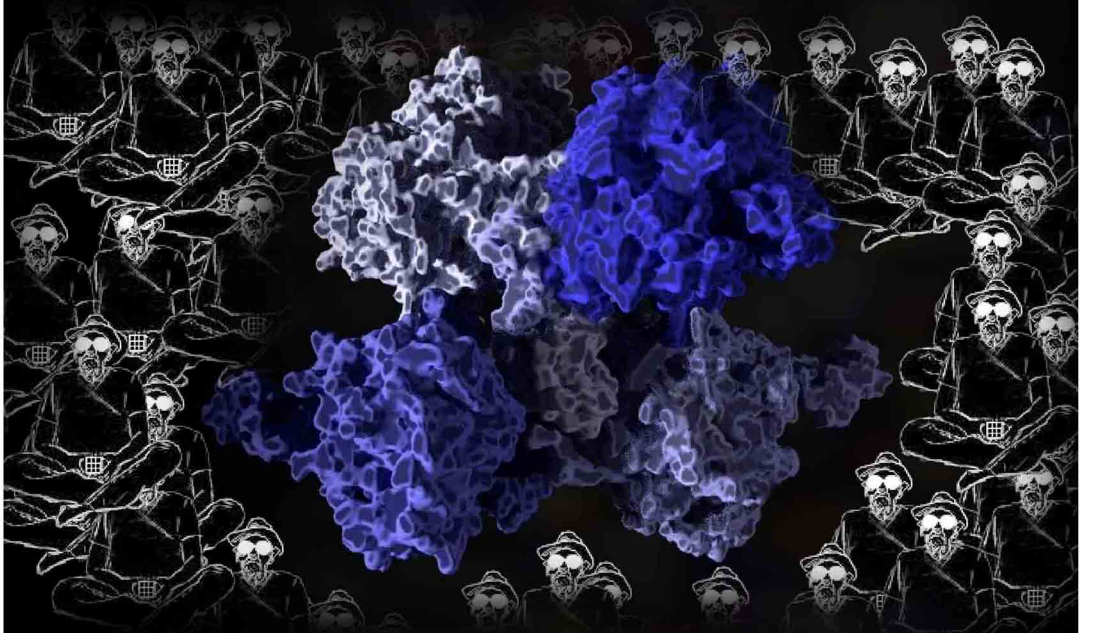

" In the chance of obtaining even a single functioning protein by chance combination of amino acids to a star system full of blind men solving Rubik's Cube simultaneously "

Fred Hoyle (1984). The Intelligent Universe.

كلمة أخيرة ...

يُخطئ من يظن أن العلوم الطبيعية مثل الفيزياء وغيرها يدخل في اختصاصها (تأكيد وجود الله) عن طريق (قياس الأشياء المادية) التي تتعامل معها، فكيف هذا والله نفسه خالق المادة ومتعالي عليها سبحانه ؟ كيف هذا وهو لا تدركه الأبصار ؟ كيف هذا ولا يستطيع أحد الإحاطة به عز وجل ؟

إذاً... نطاق عمل العلوم الطبيعية وبحثها هو في كيفية عمل عمل السنن الكونية والقوانين التي أودعها الله في الكون لتسييره، مثل كيف ينزل المطر وكيف تتحرك الرياح والسحب، ولا يعني وصول الإنسان إلى فهم هذه السنن والقوانين أن ذلك (ينفي) وجود المُسنن والمُقنن لها، وإلا لصار مثل الذي فهم كيف تعمل قوانين المرور مثلاً فاستنتج من ذلك أنها ليس لها واضع أو مُشرع ! أو درس الهاتف المحمول فلما فهم كيفية عمله استنتج من ذلك أنه ليس له صانع !

المراجع :

[1] http://www.hawking.org.uk/the-beginning-of-time.html
[2] Alan Guth, Eternal Inflation p.13
[3] Freeman Dayson, Disturbing the Universe p.250
[4] Paul Davies, Superforce
[5] http://www.christianpost.com/news/francis-collins-atheist-richard-dawkins-admits-universes-fine tuning-difficult-to-explain-51416
[6] https://www.youtube.com/watch?v=i4T2Ulv48nw

حواس الروح الخمسة !

أ. ليلى بنت عبدالرحمن الموسى
إدارية تربوية وكاتبة ومؤلفة ورئيسة المجلس التنفيذي لجمعية البر بالأحساء

مهما قيل عن التعليم وتراجع دور المعلم وعن المناهج الدراسية، فالجذور حيّة، والذاكرة تزهر زهوراً بنكهة المدارس، فهناك دروس لا تزال عالقة في الذاكرة تأبى النسيان...

ففي مادة العلوم، درس أذهلنا، وامتزج بمعرفتنا، وصاغ نظرتنا إلى ذاتنا البريئة، درس أدهش عقولنا الصغيرة، وهز أحبالنا الصوتية الناعمة، وأزاح الستار عن أعيننا، أغرانا باختبار شم رائحة الماء، ولمس خشب المقعد الذي نجلس عليه، وذكرنا بطعم الحلوى...

إنه درس الحواس (الخمسة).

لا جديد في الدرس من حيث المعلومات، كنا نعرف أن لنا سمعاً، وبصراً، وحساً، وذوقاً، وشماً ! لكن الجديد كان في ربط هذه القدرات البشرية في منظومة واحدة ذات عدد، فتناغمت تلك الحواس وتراقصت لتشكل لنا مفهوماً ذا صورة، تشبه الصورة التي نحصل عليها بعد الانتهاء من صف القطع التركيبية.

تلا هذا الدرس الوفير، درس مثير آخر في مادة القواعد، وهو درس الأسماء (الخمسة)، فالغرابة والظرافة تحيط بتلك الأسماء الخفيفة اللطيفة : أبوك وأخوك وحموك وفوك وذوك.

كم كانت مفاجِئة وجميلة ! ليت النحاة زادوا فيها قليلاً.

وفي الرياضيات يتحول جدول ضرب الرقم (خمسة) إلى لعبة ذهنية ومتعة نفسية لا تسل عنها إذا ضُرب العدد خمسة في خمسة فظهر الناتج خمسة وعشرون.

ولعل أول درس عملي في المرحلة الابتدائية، هو درس الصلاة ذات المواقيت (الخمسة)، كان تجربة إيمانية للأطفال على مقاعد الدراسة...

عرفنا مواقيت الصلوات الخمس، قبل أن نعرف أن ما غنمنا من شيء فلله (خُمسه) وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، تأخرت المعرفة لتأخر التجربة، فالغنائم اختفت من حياتنا لتوقف الفتوحات الإسلامية منذ أكثر من 300 عام...

ثقافتنا الشعبية أيضاً تعلقت بهذا الرقم المتميز، فقد يطل علينا بعينه الزرقاء خشية الحسد و(خمسة) و(خميسة) في عين اللي ما يصلي على النبي...

ويبقى السؤال العالق : أين العدد (خمسة) ؟ لماذا لم يكمل المسيرة ؟ لماذا غاب عنا في المراحل العليا من التعليم ! أين هذا العدد الرائع عن الجوانب النفسية والروحية والفلسفية ؟

ما هي حواس الروح الخمسة ؟ أم أنها مما يجب غض النظر عنه لهيبة مقامها وشرف منزلتها ؟

1- ربما تكون (الرؤى) التي تتحقق من أكثر حواس الروح جلاء، فمن منا لم يرى رؤيا ولو لمرة واحدة في حياته ! أو يسمع عنها من قريب مُقرب ويرى صدقها بعينيه، فالرؤى لها وهج لا ينكره إحساس، وقراءة متأنية في سورة يوسف عليه السلام، تعرف من خلالها كيف توقظ الرؤى الإحساس، لكن ثمة اختطاف حدث لهذه الحاسة الرفيعة من مفسري الأحلام في الفضائيات العربية !

2- وهناك حاسة أخرى تذهلك عندما تتفاجأ باتصال من شخص كنت تفكر فيه أو تنوي الاتصال به، فكم من مرة قلتها صادقاً (لقد كنت على بالي) ! أو قلت : (لقد سبقتني) أو قلت الجملة التعبيرية الشهيرة : (القلوب عند بعضها) سمِّها ما شئت : (تخاطر) أو (تواصل).

3- وعندما تعترينا يقظة أوهبّة على مستوى الروح : فلا تسل عمّا يحدث ! فقد تستيقظ لدينا فكرة فتنهض بنا وبمن حولنا، أو يستيقظ لدينا الإحساس بالحياة، أو إحساس بالجمال، فنراه في عيون قطة، أو كلمة عذبة، أو عمل خير، أو في رمال ذهبية، فننتفض لنخلع عنا ربقة الإلف والعادة ونغترف من معين الحياة لتعود لنا الحياة !

4- ومن اليقظة إلى (الإلهام)...

فالإلهام نهر يتدفق، لا ندري من أين ينبع، ولا إلى أين يتجه ! ولا وقت تدفقه، فجأة تجد نفسك تحت تأثير حالة من سكب المعاني والأفكار، والصور والخيالات لفترة قصيرة جداً، وقديماً قالوا :

إن الفكرة صيد !

5- (التراجع) أيضاً من حواس الروح، التراجع عما لا يليق بك، تراجع للحفاظ على كينونتك الإنسانية، وعلى هويتك المعنوية...

حاسة تنبه مشاعر الألم واللذة، وهي حاسة التوبة ...

نتوب في اليوم الواحد مرات ومرات دون أن نشعر.

فاللهم اقبل توبتنا.

آخر مستجدات نظرية التطور

بمناسبة نشر كلمة د. جيرد مولر في 2017م التي ألقاها بمؤتمر اتجاهات جديدة في البيولوجيا التطورية 2016م

م. أحمد حسن
باحث مهتم بنقد الإلحاد واللادينية ونظرية التطور

تمهيد ... منذ أن اشتهرت قديماً عبارة : "اتبع الدليل حيث يقودك" على يد أشهر فلاسفة اليونان من سقراط وتلميذه أفلاطون : وقد صارت شعاراً لكل زاعم للعقلانية والحيادية في البحث عن الحقائق، سواء كان صادقاً فيها أو كاذباً.

ويكاد لا تخلو مقولات أحد الملحدين أو المروجين لنظرية التطور منها، موهمين أتباعهم والمتأثرين بهم أنهم يعملون وفقها، وأنها منهجهم في الحياة وفيما يؤمنون به.

وعلى قدر جلالة هذه المقولة بالفعل وقوتها، إلا أنها تحمل في طياتها دليل نقضها ذاتياً وكشف أدعيائها عند التحقيق والفحص، إذ يكفي ملاحظة تناقضهم فيها لتسقط أقنعتها عن وجوههم في التو واللحظة.

المشكلة هنا أنهم يقاتلون فكرياً لإبعاد تهمة الانحياز عنهم. في حين هم غارقون بكامل تفسيراتهم في مستنقع إنكار الخالق لاسيما في مسألتيّ بداية الكون وبداية الحياة.

فمهما تبدت لهم من أدلة علمية وعقلية ومنطقية على وجود الخالق : تجدهم لا يختارون إلا التفاسير التي تناقض البداهة الفطرية في التفكير !

فإذا نظرنا في بداية الكون كمثال، فبعدما ظهرت الأدلة الدامغة على كمال الضبط الإلهي الدقيق لقوانين الكون وثوابته منذ لحظة ولادته : فبدلاً من تأكيد ذلك على وجود الخالق عز وجل كما اعترف به العلماء المحترمون في مجال الفيزياء والفيزياء الفلكية : نجد فيزيائياً ملحداً مثل ستيفن هوكينج يتهرب من ذلك إلى ادعاء وجود عدد مهول جداً من الأكوان العشوائية (تبلغ احتماليته كما في كتابه التصميم العظيم 1 إلى 10 أس 500) في محاولة للقول بأن هذا الضبط الدقيق لكوننا أتى بالصدفة نتيجة كل هذه الأكوان العشوائية الأخرى !

بمعنى آخر .. عندما ترى مثلاً قصيدة شعر من ألف بيت غاية في الجمال والوزن والإيقاع اللغوي البليغ : فلا تقل أنها من صنع شاعر قدير وإنما : قد يكون هناك احتمالية 1 إلى 10 أس 500 من القرود التي خبطت عشوائياً على لوحة مفاتيح لتخرج هذه القصيدة ! والسؤال :

أي التفسيرين يحقق مقولة : "اتبع الدليل حيث يقودك" ؟ وأي التفسيرين يتماشى مع العلم والعقل والمنطق والبداهة الفكرية للإنسان ؟

فإذا جئنا إلى بداية الحياة، فالأمر ليس بعيداً عما عرضناه الآن بل هو متطابق تماما التطابق ! حيث نجد أشهر ملحد تطوري اليوم ريتشارد دوكينز يقول في الصفحة الأولى من

(صانع الساعات الأعمى) :
"الأحياء هو العلم الذي يدرس الظواهر الحية التي تبدو وكأنها مُصممة لغاية" !

Biology is the study of complicated things that give the appearance of having been designed for a purpose

(تبدو) أنها (مُصممة) (لغاية) !
والسؤال : ماذا لو لم تكن مُصممة لغاية : كيف كانت ستبدو ؟! إذن - ومرة أخرى في منطق الملحدين والتطوريين - إذا رأيت ماكينة مذهلة ومعقدة ودقيقة (تبدو) وأنها (مُصممة) (لغاية) : فلا يخدعك علمك وعقلك ومنطقك وبداهتك الفكرية وتزعم أن لها صانعاً حكيماً قديراً يعلم ما يفعل !

خلاصة نقد التطور

قبل أن أستعرض معكم صور (التمسك الدوغمائي) بالتطور في عالمنا اليوم، أود في عجالة ذكر أربعة فقط من أقوى عوامل رفض نظرية التطور : علمياً وعقلياً ومنطقياً، ولا أقول دينياً حتى تكون المقالة بعيدة عن شبهة أي تحيز ديني - شماعة دفاع التطوريين ضد نقد المؤمنين لهم ! - فأقول :

1- تقوم نظرية التطور على تفسير الكمال والجمال والإبداع في الكائنات الحية وأعضائها الباهرة بالصدفة والطفرات العشوائية، وهو ما يتعارض مع كل معارف الإنسان وخبراته في الحياة وفي العلوم التطبيقية العملية والطبيعية.

2- ومع اكتشاف الحمض النووي الوراثي وأنه يعمل كالكتاب داخل خلايا الكائنات الحية وفيه صفات كل كائن وتركيب أعضائه بشفرات من ملايين ومليارات الحروف : فإن الزعم بأن خبطات عشوائية (أي الطفرات) يمكنها أن تعيد كتابة أو تزيد هذا المحتوى بشفرات جديدة لأعضاء أو كائنات جديدة : هو مثل ادعاء أن طفلاً رضيعاً يخبط على لوحة مفاتيح والده المبرمج فتقوم مئات خبطاته العشوائية بتعديل البرنامج الدقيق بل والزيادة عليه بما يتماشى معه ويتفوق عليه !

وهذا المثال ليس للتقريب، بل هو أقل من الحقيقة بكثير، فالتشفير في الحمض النووي غاية في التعقيد والتراكب ولا زال العلماء يكتشفون فيه إلى اليوم كل غريب وعجيب، وأما الصدمة الكبرى، فهي أن الصفة الواحدة من جسم الكائن الحي قد يتحكم فيها أكثر من جين في أكثر من موضع والسؤال : إذا كنا حكمنا باستحالة الضرب العشوائي المفيد في موضع واحد : فكيف بنا وأنه يلزم التطوريين اليوم القول بأن الطفرات العشوائية تكاملت خبطاتها في (أكثر) من (موضع) لتتحقق صفة معينة ما ؟!

3- إذا كان وقع التطور التدريجي بالفعل عبر ملايين السنين (سواء كان تقوده الصدفة العمياء أو بفعل الخالق كما يزعم مؤمنو الأديان القائلين بالتطور) فهذا يعني ضرورة امتلاء طبقات الأرض وصولاً إلى أقدم حقبة جيولوجية لانفجار الحياة المعقدة (وهي حقبة الانفجار الكمبري) : بحفريات وبقايا مليارات الأنواع من الكائنات الحية التي تترجم هذا التدرج البطيء، لكن... ورغم وصول اكتشافات العلماء إلى هذه الطبقات بالفعل : لم يجدوا أي دليل على مثل هذا التدرج المزعوم، إذ كل البقايا التي تم العثور عليها هي ثابتة منذ ظهورها في طبقتها الجيولوجية وإلى اليوم سواء كانت حية أو منقرضة، ولا يوجد أي تدرج يربطها بشيء قبلها أو بعدها، وهو ما قال داروين أنه كفيل بهدم نظريته إذا لم يتم العثور على هذه البقايا وبصورة وفيرة جداً من المفترض (انظر كتابه أصل الأنواع : باب صعوبات النظرية : انعدام أو ندرة وجود الحلقات الانتقالية) حيث تعلل وقتها بأنه في المستقبل القريب لعله يعثر عليها العلماء، لكن إلى اليوم وبعد مرور 150 عاماً لم يتحقق هذا الشرط الأساسي قط. لذلك شهدت (نظرية) التطور أكبر عدد ممكن من عمليات (الغش) و(التزوير) و(التلفيق) في أدلتها بما لم نره في أي نظرية علمية من قبل ولا نعتقد من بعد أيضاً !

4- بالنسبة للأمراض، نحن نعرف أن هناك أمراض مُميتة (للإنسان خصوصاً لأنه أقرب لفهم غير المختصين)، وأن هذه الأمراض تحدث بوقوع تغيرات طفيفة جداً في التشريح المفترض للكائن، يعني مثلاً لو زادت لزوجة الدم أو ميوعته ؟ أملاحه ؟ أماكن الأعصاب الرئيسية بين العظام ؟ كهربية المخ ؟ صمامات القلب ؟ ومئات غيرها والسؤال : كيف يتوقع عاقل أن الصدفة والعشوائية تعمل بالتجربة العمياء في الكائنات : دون أن تفنى الأفراد لعيوبها القاتلة ؟!

المُتقدم الوحيد !

تنتشر بين العوام عدة أمثلة شعبية مدارها حول (مَن تقدم إلى اختبار ما بمفرده) .. فتارة تركز على فوزه بالمركز الأول (بجدارة) و (بدون منافس) ! وذلك من باب الطرفة والضحك، وتارة أخرى تنقلب الطرفة إلى استخفاف أو توبيخ في ضرب المثل بشخص لو تم اختباره (بمفرده) لكان الأخير !

ونظرية التطور في الحقيقة تقدم لنا الصورتين معاً... فهي تارة يتم التأكيد على أنها النظرية الوحيدة القادرة على تفسير الحياة : في حين أن المجتمع العلمي العلماني أو المادي لم يقبل ولا يقبل إلا هي أصلاً (إذ يرفضون الإشارة إلى الخالق لأنه لا يمكن إخضاعه لمعاملهم وأدواتهم المادية والبحثية) ! وتارة أخرى بالنظر في فشلها المستمر منذ أسس لها داروين وإلى اليوم : لا يسعنا إلا القول بأنها تنتمي بالفعل إلى هذا الصنف الذي إذا تم اختباره (بمفرده) لكان الأخير !

فكل الأدلة التي اعتمد عليها داروين في كتابه (أصل الأنواع) وأخذ أغلبها من لامارك : ثبت خطؤها في السنوات التي تلته (وعلى رأسها عدم توريث الصفات المكتسبة والذي أثبته تطوريون أنفسهم مثل وايزمان وغيره)، ثم تكفلت وراثة مندل بالباقي على نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، فقام ألفريد راسل والاس وأوجست وايزمان بدفع عجلة ما يُسمى بـ (الداروينية الجديدة) : Neo-Darwinism في محاولة للجمع بين الانتقاء الطبيعي لداروين وبين وراثة مندل، ثم مع ظهور التعقيد الخلوي والحمض النووي الوراثي DNA الذي يحمل شفرة كل صفات أجسام الكائنات الحية (ليُسقط بذلك إلى الأبد فكرة تأثير البيئة على جسم الكائن ليظهر له عضو أو يختفي نتيجة الحاجة أو الاستخدام) فتم - ومن جديد - محاولة مواكبة هذه الصدمة بإبراز ما يُسمى بـ (النظرية التركيبية الحديثة) The Modern Synthetic Theory والتي زعموا فيها أن الطفرات العشوائية العمياء التي تقع بالصدفة للحمض النووي للكائن الحي نتيجة تعرضه لعوامل مثل الإشعاع أو الحرارة أو بعض الكيماويات إلخ : يمكنها أن تعدل أو تضيف شفرات جديدة إلى محتوى الحمض النووي للكائن من شأنها أن يظهر لديه عضو جديد بالتدريج أو صفة جديدة ليست من حوضه الجيني الخاص بنوعه.

وهنا لنا وقفة مع هذه الأخيرة (أي النظرية التركيبية الحديثة).

أزمة القرن الجديد !

كما قلت من بين الأربعة عوامل القوية لرفض التطور : كان التعقيد المذهل للحمض النووي والذي يجعل الصفة الواحدة يتحكم فيها أحياناً كثيرة أكثر من جين في أكثر من موضع، بل وقمت بتشبيه ذلك بالبرنامج الدقيق الذي لن تزيده أي ضربات عشوائية على لوحة المفاتيح إلا إفساداً لهيكله ومحتواه وتضييعاً له ! الآن : أنت مُطالب بإثبات قدرة الطفرات على إحداث صفة (جديدة) من خارج (الحوض الجيني) للكائن ! ولكي نفهم موضوع الحوض الجيني، فلو لدينا مكونات طعام مثل البيض والدقيق والخميرة، هنا يوجد لدينا (حوض جيني) - مع فارق التمثيل - للأشياء أو الأصناف التي يمكن أن تخرج من هذه الثلاثة معاً ومهما تعددت أو تنوعت، لكننا أبداً ويستحيل أن نجد من بين الأشياء أو الأصناف في يوم ما شيء أو صنف فيه ليمون مثلاً ! فهنا الليمون هو خارج (الحوض الجيني). وبالعودة للإنسان للمقارنة : فقد نجد إنساناً طويلاً قصيراً ممتلئاً أسود البشرة أو أبيض أو أسمر أو مجعد الشعر أو ناعمه، (فكل ذلك داخل الحوض الجيني للبشر) : لكننا لن نجد أبداً إنساناً له جناحان مثلاً أو زعانف !

ناهيك أنه مع الإخفاق المستمر للتطوريين في عدم إيجاد طفرات تضيف شيئاً أو عضواً جديداً من خارج الحوض الجيني لأي كائن حي (ولم تنفع معهم حُجة ملايين السنين لوجود كائنات دورة حياتها قصيرة جداً مثل البكتريا وذبابة الفاكهة وغيرها) : فلم يسعفهم أيضاً سطوهم على قدرات (التكيف) التي لدى الكائنات الحية لتواكب تغيراتها الحيوية والبيئية : ليسموها باسم (التطور الأصغر) Micro-Evolution ليوحوا للناس أنها نتجت عن (طفرات) عشوائية مفيدة وأنها مع الزمن (وبالتأكيد) ستؤدي إلى (التطور الأكبر) Macro-Evolution وظهور أعضاء جديدة تماماً أو أنواع جديدة من أسلاف وأنواع قديمة !

فبغض النظر عن أن ذلك لم يشاهده أحد : فقد اكتشف العلماء على مدار العقود الماضية أن (التكيف) هو تضبيطات (موجودة مسبقاً) في الحمض النووي للكائن وفي طبقة متحكمات حوله (وهو ما يعرف بالوراثة فوق الجينية)، فهو من وإلى الكائن نفسه ولم يأتيه من الخارج، ولذلك يعود بالكائن دوماً إلى حوضه الجيني ولا يتعداه !

فمثلاً أنا كإنسان يعيش في منطقة بارتفاع مستوى سطح البحر : سوف تحدث تغيرات (أو تكيفات) في جسمي عندما انتقل للعيش فوق جبل مرتفع، حيث ستبدأ صفات وجينات كامنة لم تكن فعالة : في نسخ وتفعيل نفسها تواكباً مع اختلاف درجات الحرارة والضغط، بل إن جسم الإنسان تحدث فيه تغيرات دائمة حتى بين فصول العام الواحد من صيف أو شتاء : ثم تعود كما كانت كلما زالت الظروف أو التغيرات التي استدعتها، وهكذا.. فهل نقول هنا أن الإنسان (يتطور) أو أنه في طريقه على المدى البعيد إلى (التطور) ؟!

هذا الكلام الذي ذكرته لكم الآن كان يجادل فيه التطوريون جدالاً عنيفاً لدرجة تسفيه كل مَن ينتقدهم به ووصفه بأقذع الأوصاف ! فالأمر فعلاً خطير إذ : لا يظهر في الأفق (تعديل) جديد للتطور الحالي (النظرية التركيبية الحديثة) وذلك في الوقت الذي تتزايد فيه الانتقادات الأكاديمية العلمية والفلسفية إلى مزاعم التطور وتفندها وتثبت في كل يوم أن ما كان يعده التطوريون (طفرات مفيدة) وخاصة في البكتريا : لم يكن إلا آليات مذهلة لل (تكيف) مع مختلف التغيرات ! وأنه مع كثرة هذا (التكيف) لم تتحول البكتريا إلى كائن آخر أبداً بل ولم يتحول نوع بكتريا إلى نوع بكتريا آخر ! وعلى هذا قس كل الكائنات.

وقد اعترف بهذه الورطة العالم التطوري دينيس نوبل Denis Noble بالمؤتمر العالمي لعلم وظائف الأعضاء بمدينة سوجو - الصين من 1 إلى 4 نوفمبر 2012م. [1]

ومن قبله العالم التطوري أيضاً فرانكلين هارولد Franklin Harold حيث يقول في كتابه (طريق الخلية) طبعة 2001م :

"ينبغي لنا أن نرفض كمسألة مبدأ استبدال التصميم الذكي للحوار عن الفرصة والضرورة، لكن يجب علينا الاعتراف بأنه في الوقت الحاضر لا يوجد أي تفسيرات داروينية مفصلة لتطور أي نظام بيوكيميائي أو خلوي، فقط مجموعة متنوعة من التكهنات والأمنيات" ![2]

وقد سبقهما موقع التايمز الشهير للتعليم العالي بعنوانه الصادم في 1995م : "الداروينية الجديدة فشلت كنظرية للتطور"[3]

Neo-Darwinism has failed as an evolutionary theory

والسؤال من جديد (وللمرة الثانية والثالثة والرابعة وسيظل يتكرر وبنفس الإجابة للأسف) : هل سيقررون أخيراً الاعتراف بالخالق عز وجل وأنه لا وجود للصدفة والعشوائية في المخلوقات ؟ والإجابة :

الطريق الثالث !

لا بالطبع .. لن يتوقفوا أبداً عن محاولة (تعديل) التطور الصدفي والعشوائي، فهو عندهم (لا بديل له) طالما يبحثون عن تفسير (مادي) بعيداً عن الأديان، هم أرادوا الخروج من عباءة الكنيسة وتشددها على العلماء : فأدخلوا العالم كله في عباءة التطور وتشدده على العلماء !

اليوم يوصف مَن يذكر فقط (التصميم الذكي) كإشارة إلى رفضه الصدفة والعشوائية بأنه رجل غير علمي (حتى لو قال بالتطور أو الأصل المشترك مثل مايكل دانتون أو مايكل بيهي !).

ولذلك بدأ يتكاثر المنادون اليوم بإيجاد (طريق ثالث) ThirdWay لتفسير التطور بعد فشل الداروينية الجديدة والنظرية التركيبية الحديثة التي صدعوا رؤوسنا لسنوات بانها (حقيقة) و (واقع) تم إثباته معملياً وانتهى الأمر منه وفرغ !

بل وقام أكابر العلماء التطوريين بإنشاء موقع يجمعهم ويجمع أصواتهم بهذا الاسم (الطريق الثالث للتطور)، يمكن الاطلاع عليهم ونبذة عن كل منهم من الرابط التالي :

http://www.thethirdwayofevolution.com/people

فهل ظلّ عدم الإلتفات الرسمي إليهم سائداً ؟ أم تغير اليوم ؟

مؤتمر الجمعية الملكية

في عام 1966م تم عقد مؤتمر هام في معهد ويستار Wistar Institute بفيلادلفيا، حيث تم توجيه اعتراضات خطيرة من علماء فيزياء ورياضيات للاحتمالات العشوائية التي ينشرها التطوريون بكل بساطة وكأنها شيء من المُسلمات ! وقد كانت النقاشات من القوة لدرجة أن توصف بأنها وصلت أحياناً للتراشق بين الفريقين ! ولكن النتيجة في النهاية كانت لصالح الطعن في صحة التطور بشكله الحديث المعتمد على الطفرات العشوائية والصدفة والانتقاء الطبيعي، وهو ما ترك أثره بالفعل إلى اليوم كما رأينا من اعترافات التطوريين أنفسهم وموقع التايمز منذ قليل، وقد تم نشر هذا السجال العلمي بكل تفاصيله وجلساته في عمل بعنوان :

"التحديات الرياضياتية لتفسير الداروينية الحديثة للتطور". [4]

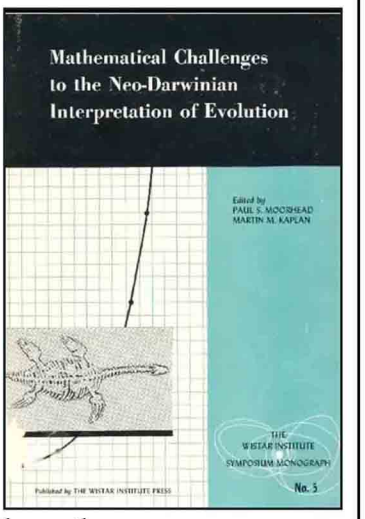

واليوم ... وبعد 50 عاماً تقريباً (في نوفمبر 2016م) تم عقد مؤتمر آخر لا يقل أهمية (وصدمة) عن الأول باسم : "اتجاهات جديدة في البيولوجيا التطورية).

المؤتمر تم عقده في الجمعية الملكية، وألقيت فيه كلمة لأحد أشهر علماء البيولوجيا التطورية المعاصرين وهو البروفيسور النمساوي جيرد مولر Gerd B. Muller. وهي الكلمة التي لم يتم نشر نصها إلا في شهر أغسطس 2017م ! وكان عنوانها : "لماذا أصبحت النظرية التطورية المُعدلة (EES) ضرورة ؟ [5]

Why an extended evolutionary synthesis (EES) is necessary

Why an extended evolutionary synthesis is necessary

Gerd B. Müller[1,2]

[1]Department of Theoretical Biology, University of Vienna, Vienna, Austria
[2]Konrad Lorenz Institute for Evolution and Cognition Research, Klosterneuburg, Austria

GBM, 0000-0001-5011-0193

Since the last major theoretical integration in evolutionary biology—the modern synthesis (MS) of the 1940s—the biosciences have made significant advances. The rise of molecular biology and evolutionary developmental biology, the recognition of ecological development, niche construction and multiple inheritance systems, the '-omics' revolution and the science of systems biology, among other developments, have provided a wealth of new knowledge about the factors responsible for evolutionary change. Some of these results are in agreement with the standard theory and others reveal different properties of the evolutionary process. A renewed and extended theoretical synthesis, advocated by several authors in this issue, aims to unite pertinent concepts that emerge from the novel fields with elements of the standard theory. The resulting theoretical framework differs from the latter in its core logic and predictive capacities. Whereas the MS theory and its various amendments concentrate on genetic and adaptive variation in populations, the extended framework emphasizes the role of constructive processes, ecological interactions and systems dynamics in the evolution of organismal complexity as well as its social and cultural conditions. Single-level and unilinear causation is replaced by multilevel and reciprocal causation. Among other consequences, the extended framework overcomes many of the limitations of traditional gene-centric explanation and entails a revised understanding of the role of natural selection in the evolutionary process. All these features stimulate research into new areas of evolutionary biology.

1. Introduction

A century ago, it was noted in the domain of physics that 'concepts that have proven useful in ordering things easily achieve such an authority over us that we forget their earthly origins and accept them as unalterable givens. Thus,

فالرجل يتحدث في مؤتمر كبير مثل هذا عن ضرورة الموافقة على ما أسماه النظرية التطورية المُعدلة (أي أنها امتداد للنظرية التركيبية الحديثة)، ورغم أنه لا زال يدور في فلك (نظرية التطور) لأنه لا بديل للعلم المادي والعلماني عنها كما قلنا إلا أن هناك مواضع من كلماته في تلك الورقة التي ألقاها : تكشف وبجلاء عن الوجه الحقيقي لعلماء التطور، وكيف أنهم في قمة فشلهم عن التفسير العلمي للصدفة والعشوائية والطفرات : كانوا يوهمون عامة الناس للأسف أن النظرية بخير، وأنها (تزداد قوة) يوماً من بعد يوم ! وأن (كل) الانتقادات التي توجه إليها هي (غير علمية) أو (متحيزة) أو (بدافع الدين)، وأن مَن يعارضونها هم (أقلية) بل (عدد نادر) ! وأنها لذلك توجد في أي ورقة علمية اليوم تتحدث عن البيولوجيا أو الكيمياء الحيوية !

يقول جيرد مولر في الصفحة 2 عن الوضع الجدلي الحالي حول نظرية التطور :

"ولذلك، فإن هناك أعداد متزايدة من الدراسات التي تدعو إلى إجراء تنقيح كبير أو حتى استبدال كامل لنظرية التطور القياسية، مما يشير إلى أن هذا التوجه لا يمكن رفضه باعتباره وجهة نظر أقلية، بل هو شعور واسع الانتشار بين العلماء والفلاسفة على حد سواء " !

ويواصل في نفس الصفحة :

"في الواقع، ظهرت على مدى السنوات القليلة الماضية أعداد متزايدة من التحديات للنموذج الكلاسيكي للتطور في مجالات عدة، مثل بيولوجيا النمو التطورية، والوراثة فوق الجينية، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم الجينوم، وعلوم البيئة، وعلم الوراثة السكانية، والتطور التنظيمي، والنظم الشبكية، ودراسات ظهور الصفات المُستحدثة، وعلم الأحياء السلوكي، وعلم الأحياء المجهرية، وبيولوجيا النظم، مدعومة أيضا بالكثير من الحُجج من العلوم الثقافية والاجتماعية، فضلاً عن المُعالجات الفلسفية. لا شيء من هذه الادعاءات غير علمي ! وكل هذه الادعاءات مؤسسَة حول المبادئ التطورية وكلها مدعومة بأدلة تجريبية كثيرة." !

ويقول في نفس الصفحة كذلك عن رد فعل العلماء التطوريين أمام تلك التحديات للأسف :
" غير أنه بعض الأحيان، تتم مواجهة هذه التحديات بنوع من "العداء العقائدي"، الذي يحاول مهاجمة وتفكيك أي انتقاد للمعبد النظري التقليدي باعتباره "طرحاً هزلياً"، وفي كثير من الأحيان يدافع المدافعون عن المفهوم التقليدي بأن "كل شيء على ما يرام" مع النظرية التطورية الحالية التي يرون أنها تسير جنباً إلى جنب مع الإطار المنهجي والتجريبي الذي يحظى باحترامهم في البيولوجيا التطورية بشكلها الحالي. ولكن الحقيقة التي تم تأكيدها مرارا وتكرارا أن الآليات التطورية التي ذكرت في بعض الكتابات السابقة أو الحالية لا تعني بالضرورة أن يتم وضع الهيكل الرسمي للنظرية التطورية ليناسب تلك الكتابات فقط " !

ويعيب على التطوريين تهربهم في كل حوار يضيق عليهم الخناق إلى زاوية (الوراثة السكانية)، فيقول في صفحة 3 :
"غير أنه قد أصبح من المعتاد في البيولوجيا التطورية أن تقوم بأخذ مفاهيم الوراثة السكانية كتفسير مُميز يصلح لتفسير جميع الظواهر التطورية. هذا الاتجاه يستبعد حقيقة أنه من ناحية لا يمكن تأكيد كل تنبؤات الوراثة السكانية في جميع الظروف، ومن ناحية أخرى يستبعد حقيقة أنه لا تزال هناك ثروة من الظواهر التطورية التي يتم استبعادها ! فعلى سبيل المثال، تتجنب النظرية إلى حد كبير مسألة كيفية نشوء النُظم المعقدة للبنى الحيوية أو وظائف الأعضاء أو تطور السلوك - الذي يصفه الاختلاف التطوري - كما أن النظرية لا توفر وسائل كافية لاعتبار العوامل التي ليست جزءا من الإطار الجيني للسكان، مثل التنموية، والنظم النظرية، والتأثيرات البيئية أو الثقافية"
وفي الصفحة 8 :
يتعمد جيرد مولر الإشارة إلى تلاعبات التطوريين بالتكيف ووصفه بـ (التطور الأصغر) لتقديمه كدليل تجريبي إذا طالبهم أحد بدليل تجريبي على التطور ! وذلك في مقابل التهرب من أزمة عدم وجود أدلة فعلية على (التطور الأكبر) أي من نوع إلى آخر أو على مستوى النوع وأعضائه ! يقول :
"وهناك نسخة كذلك أكثر تعنتاً من هذه، وهي استخدام حُجة "لقد تم ذكر ذلك من قبل" والتي تستخدم لتحويل أي تحديات تجاه الرؤية التي يتم استقبالها إلى جدال لا ينتهي حول (التطور الأصغر ضد التطور الأكبر)" ويتابع بعدها بقليل :

"وبذلك يتم تجاوز مشكلة التعقيد البنائي بشكل أنيق. وفي النهاية، فلا مفر لهؤلاء من محاولة التوصل إلى استنتاج مفاده أن آليات التطور الأصغر تتسق مع التطور الأكبر، على الرغم من أن هذه الآليات ليس لها علاقة تذكر بتطوير الهيكل البنائي للنظرية وتنبؤاتها. القضية الحقيقية هنا هي أن التطور الجيني وحده غير كاف لإعطاء تفسير سببي مناسب لظهور التعقيد في السمات الظاهرية، ناهيك عن جعله جزءاً من شيء غامض يُطلق عليه (التطور الأكبر). ومن ثم، فإن التمييز بين التطور الأصغر والأكبر لن يؤدي إلا إلى محاولة إخفاء المسائل الهامة التي تنشأ عن التحديات الراهنة التي تواجه النظرية التطورية القياسية" !
وفي النهاية : ما أصدق مقالة بروفيسور الكيمياء الشهير فيليب سكال Philip Skell (أبو كيمياء الكربين) Father of carbene chemistry والتي سخر فيها بشدة من حشر أنف كلمة (التطور) اليوم في أي بحث علمي أكاديمي ليتم قبوله في الأوساط العلمية والمجلات ! المقال بعنوان : "لماذا نتمسح في داروين".[6]

المراجع :

[1] فيديو كلمته التي ألقاها :
https://www.youtube.com/watch?v=UeqEBrnai4s
[2] المصدر :
Franklin M. Harold, 2001 - The way of the cell: molecules, organisms and the order of life - Oxford University Press, New York p. 205
[3] الرابط :
https://www.timeshighereducation.com/features/neo-darwinism-has-failed-as-an-evolutionary-theory/98152.article
[4] فيديو مترجم يتحدث عنه :
https://www.youtube.com/watch?v=ufg2LLrFwqY
[5] رابط تنزيل PDF للكلمة :
http://rsfs.royalsocietypublishing.org/content/royfocus/7/5/20170015.full.pdf
[6] رابط المقال :
http://mobile.the-scientist.com article/16649/why-do-we-invoke-darwin

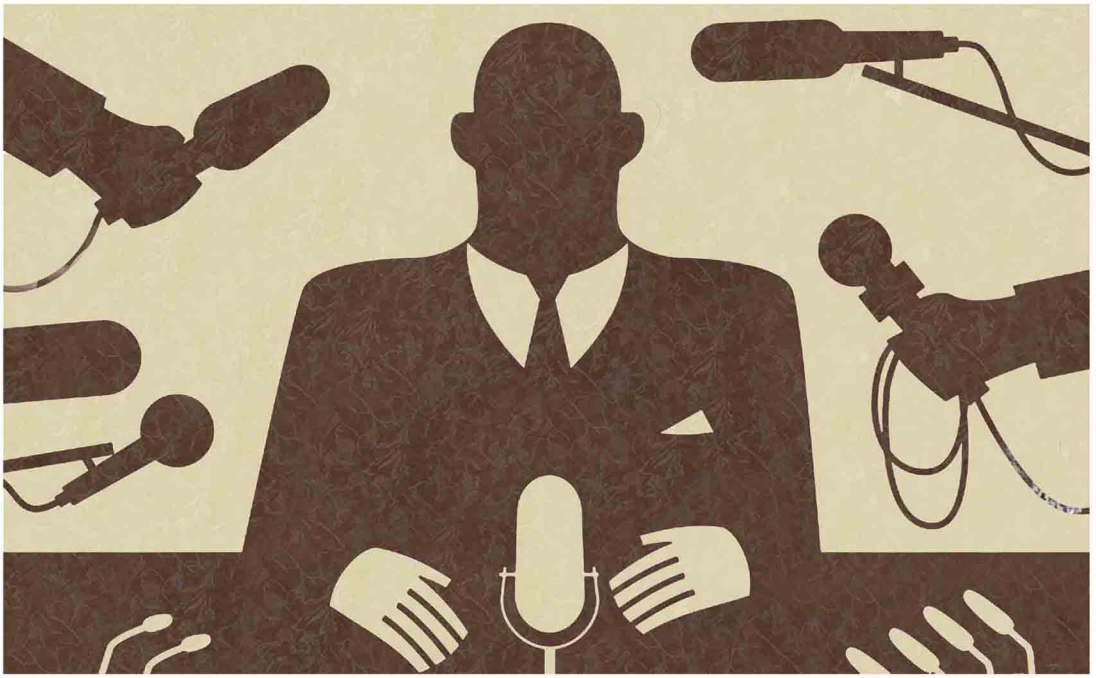

اللغة والتلاعب بالوعي

الجوهرة بنت مقعد العتيبي
معيدة لغة إنجليزية ، باحثة ماجستير تخصص لغويات

"نحن عبيد الكلمات"...

قالها كارل ماركس، كيف يمكن أن تكون العلاقة بين اللغة والوعي؟ وكيف بالإمكان استخدام اللغة للتلاعب بالوعي مما يجعل الإنسان عبداً لها... أي عبداً للكلمات ؟

للغة صبغة إيحائية في التأثير على شعور الانسان ومن ثَم فكره وإدراكه، لذا كان الإنسان قديماً ولا زال يطلب النصيحة والمشورة في قضاياه الخاصة ويستمع للمواساة في مصائبه، فعندما نقول لشخص ما : "لا تحزن" نعلم بأننا لن نستطيع إيقاف القدَر الذي أحزنه، وربما نعجز عن تغييره، لكننا نحاول الإيحاء لشعوره وتهيئته من أجل التأثير على إدراكه للواقع ورؤيته للأمر، ومن ثَم تخفيف ذلك الشعور بالألم. ولهذا، نجد كتب تطوير الذات تضج بالتجارب والممارسات التي تركز فيها على الجانب اللغوي، فإحدى النصائح مثلاً تقول : "اكتب أحلامك كي تتحقق" أي حَوّل هذا الحلم من أمنية إلى لغة مكتوبة لكي توحي هذه اللغة إلى عقلك بحلمك كلما قرأتها، وبالتالي تبرمج سلوكك وتعيد ترتيب جدول يومك.

يقول سيرجي في كتابه التلاعب بالوعي : "فالوظيفة الابتدائية للكلمة كانت منذ فجر البشرية التأثير الإيحائي والإخضاع، لا من خلال الإدراك، بل من خلال الشعور".

وقد ظهر الاهتمام بهذا الجانب من اللغة في التأثير بالشعور على أساس فلسفي مبني على جذور الفلسفة السفسطائية. إذ استخدم السفسطائيون اللغة من أجل التأثير على الرأي العام والجماهير. أي وضعوا آليات واستراتيجيات لترويج أفكارهم عن طريق التلاعب باللغة واستثمار معرفتهم بأسرارها.

حيث قام السفسطائي غورجياس بتأسيس منظومة فلسفية كاملة حول الرأي واللوغوس الكلامي.

فاستخدم اللوغوس من أجل التأثير على الرأي العام، وبالتالي تولد لدينا مصطلح : "فن قيادة النفوس"، أي التأثير على النفوس والآراء من خلال الإقناع الكلامي ليكون بمثابة الحرب النفسية على الجماهير. ومن خلال هذه المنظومة الفلسفية وضع غورجياس نظريات تحدث فيها عن كيفية توجيه الحرب على الأعداء من خلال التهويل

والإغواء الذي توحي به اللغة، كما تحدث عن آلية إرهاب العدو عن طريق الصوت والصورة. وهدفهم من ذلك هو الوصول إلى السلطة والسيطرة والتسلط على الشعب في اليونان، وبالتالي أصبحوا الأوائل في فلسفة التضليل السياسي.

يقول غورجياس : "إن الكلام متسلط كبير، فبواسطة جسم صغير وغير محسوس : يُنجز الأعمال الأكثر قدسية، حيث أن له القدرة على تسكين الخوف، ونزع الألم، وتوليد الفرح، وتعظيم الشفقه".

هذه الحركة الفلسفية أصبحت في اصطدام مع التيار الفلسفي الذي تبناه سقراط وتلاميذه، فكان الصراع بينهم قائماً حول المفاهيم السياسية كالعدالة والقانون. فقد كانت منهجية السفسطائيين تقوم على الوصول للسلطة من خلال الإلمام التام باللغة والاعتماد على المحاجّة البرهانية والإقناع والتفسير، وبالتالي أطلق الآخرون عليهم مصطلحات تكشف زيف فلسفتهم مثل : "باعة علم الكلام"، "الذين مزجوا الحق بالباطل" و "زيفوا الحقائق". [1]

في تلك الحقبة تحولت اللغة من كونها سمة إنسانية قيمة تحمل معاني صادقة كما قال هايدجر: "كانت الأقدس من بين القيم كلها" إلى سلعة سوقية تباع وتشترى بحسب أهداف السلطة التي تمتلكها وتقوم بالترويج لها. فزالت قداسة اللغة وتحولت إلى أداة لا روح فيها.

لقد حاولت السلطة منذ القدم أن تجعل اللغة أداتها المتجددة في السيطرة ومد النفوذ، لأنها علمت أن القوة العسكرية ستأخذ منها أضعاف ما تأخذه القوة اللغوية (الكلامية)، فما تأخذه الحرب العسكرية في سنوات قد تأخذه الحرب النفسية الكلامية في أشهر وربما أقل ليتحقق مُرادها ومرامُها.

يقول هتلر في كتابه كفاحي :

"القوة التي أدت إلى حركة التيارات التاريخية الكبرى في المجال السياسي أو الديني، كانت منذ الأزمنة السحيقة هي السطوة السحرية للكلمة المنطوقة وحدها. إن الجمهور الأكبر من الناس يخضع إلى سطوة الكلمة دائماً".

كيف بالإمكان استخدام اللغة للتلاعب بالوعي؟

تكمن الإجابة على هذا السؤال في معرفة أبرز مظاهر اللوغوس الكلامي وهما :

مظهر القوة السحرية للكلمة - أي الكلامي التشويقي وأساليب المدح والإطراء والتشويق -.

ومظهر القوة الكلامية المسيطرة - أي التهديد والوعيد والحث على العنف والانتقام - [2].

وبهذين المظهرين نجد أن المتحدث أو من يعد الخطابات والنشرات يحرص أن تكون اللغة ذات استخدام للتشبيهات والاستعارات والصور الجمالية من أجل خلق صورة ذهنية محددة في ذهن السامع يقوم برسمها المتحدث بريشة كلماته.

فباستخدام الاستعارات والتشبيهات والمصطلحات المبتذلة، ستوفر جهداً ذهنياً، نتيجة لإبقاء المعنى غامضاً [3].

أي ستجعل الجماهير في حالة من الانقياد للصورة المرسومة أمامهم بحديثك فلا يعارضونه بتفكير نقدي.

وما دفع هؤلاء إلى ذلك سوى فهمهم الدقيق لتفكير الجماهير ومخيلتهم ونفسيتهم، حيث يصفها غوستاف لوبون في كتابه (سيكولوجية الجماهير) بأنها - أي الجماهير- : "سريعة التأثر والتصديق لأي شيء" فالصورة الذهنية المثارة لديها تعتبر حقائق واقعية، ولا يمكن محاجتها بالحجج العقلية.

فمخيلة الجماهير تتأثر بالصور وتنجذب إلى الجانب السحري. والجماهير متعصبة، ولديها نزعة محافظة، وخاضعة للاستبدادية، ولديها عبودية أمام السلطة القوية، وبالتالي أمام السلطة اللغوية القوية.

لقد استطاع جورج أورويل في مقالته : (اللغة الإنجليزية والسياسة) أن يصف اللغة المستخدمة في السياسة بقوله : "العدو الأكبر للغة هو النفاق، فعندما تكون هناك فجوة بين حقيقة المرء وأهدافه المعلنة، يتحول الكلام إلى (كلامات) طويلة بأسلوب مسهب مستفيض".

وبالنظر إلى عدة أمثلة في مقالته ؛ فقد ذكر أن أبرز السمات الأساسية للكتابة والخطابة السياسية هي : "خليط من الضبابية والغموض والعجز".

وقد حرص على تمثيل ذلك في روايته : "1984" عند وصفه للأخ الكبير : "لم يكن ثمة ما يسمع ما كان يقوله الأخ الكبير. فقد كانت مجرد كلمات تشجيعية معدودة من تلك التي يتمتم بها في معمعة المعارك لا يستطيع المرء تمييزها".

وأوضح الغاية من ترديد تلك الكلمات بأنها : "شكل من التنويم الذاتي المغناطيسي، وحالة من تغييب الوعي من خلال الإيقاعات الرتيبة".

لقد تنوعت الأساليب والطرق والاستراتيجيات في التلاعب باللغة لأجل توجيه الجماهير (أو الرأي العام)، في محاولة منها لفرض السلطة بمختلف مجالاتها السياسية والقبلية والدينية، وذلك عن طريق الإعلام كأحد أبرز الطرق وأسهلها في إيصال الكلمة لأكبر عدد ممكن من الناس عن طريق الدعاية.

فالدعاية هي : "التأثير على آراء ومعتقدات الجماهير لجعلها تتخذ اتجاهاً معيناً نحو نظام أو مذهب بصورة إيجابية أو سلبية، كما تحاول تهيئة نفسيات الأفراد لقبول وجهات النظر التي تدعو لها والتشبع بها، وتلجأ إلى تشويه الحقائق وتحريفها".[4]

ويعرفها "بارتلت" على أنها : "محاولة التأثير في رأي الجماعة وسلوكهم بحيث يتخذ الأفراد رأياً وسلوكاً معينين دون أن تفكر الجماهير في الأساليب التي دفعتها لتبني تلك الآراء والمعتقدات والبحث في منطقيتها". ومن بين هذه الأساليب والوسائل ما يلي :

1- تزييف الحقائق :

للسلطة التي تمسك بزمام الإعلام - كما في حالة الحكم النازي في ألمانيا في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين - علاقة كبيرة مع تزييف الحقائق أمام عقول الناس من أجل الحصول على أكبر عدد من المؤيدين في بلوغ أهدافها.

2- التهويل واستخدام الخوف :

تجلى هذا الأسلوب بوضوح في رواية جورج أورويل "1984" إذ كونها الرواية المبادرة في كشف بعض الأنظمة السياسة الاستبدادية والمساهمة لغوياً في إثراء اللغة الإنجليزية بمصطلحات كمصطلح "الخطاب المزدوج" Double think ومصطلح "أورويليان" Orwellian إشارة إلى النظام السياسي الذي يعبر عنه جورج في كتاباته.

تكمن الفكرة الرئيسية في هذه الرواية في كيفية تصور "الأخ الكبير" وكيفية التعبير عنه بأنه رمز السلام والعدالة، وأنه يسمع ويرى ومعك حيثما كنت، وذلك لأجل إرهاب الناس وتخويفهم وقمعهم تحت سيادة الحزب.

واستمراراً لذلك :

نجد استخدام التهويل الكلامي كأحد أساليب نشر الخوف والرعب بين الناس، فقد كانت النازية تردد : "هتلر هو القوة الحقيقية الوحيدة، وبما أن الجميع مع هتلر، فإنه يتوجب عليّ أن أكون معه أيضاً إذا كنت أبغي السلامة".

وبالمثل ما أشاعه الفاتح المغولي جنكيز خان عن جيشه بقوله : "إنهم أعداد كالجراد لا تحصى، ويأكلون كل شيء يجدونه في طريقهم، حتى الذئاب والدببة والكلاب".

فمثل تلك التصريحات تثير الخوف والرعب في نفوس الجماهير، وتساهم في تضليل أفكارهم، يقول كلاوس : "يستخدم التضليل عن عمد، السيكولوجية الفردية والاجتماعية المتمحورة حول هذه الكلمات، لأن الخائفين يفتشون دوماً عن منقذ أو عن رجل قوي أو حزب قوي يأخذ عنهم عبء المسؤوليات الملقاة عليهم.

ولا ينصبّ الخوف والجزع في التضليل على أحداث مشخصة دائماً، بل يتم نشرهما في حالات كثيرة لذاتها، وبذلك يبقى مفعول التحريض ضاغطاً باستمرار على المتلقين :

"الخوف من الأزمة"، "الخوف من الجريمة"، "الخوف على الوجود الخاص"..

فالمخاوف دوماً تخدم بأنماطها المتنوعة الأهداف المقررة للسياسة وتحريضها.

فالخوف من الأزمة يعني الموافقة على الخطط الاقتصادية، والخوف من الجريمة يعني الموافقة على السلطات الخاصة، والخوف على الوجود الشخصي يعني العودة إلى أشكال بدائية من الولاءات الغيبية وفقدان القدرة على التفكير النقدي".

3- المصطلحات المُضللة :

تلجأ الخطابات الاستعمارية إلى تضليل الشعوب عن طريق التلاعب الدلالي - وهو أن يكون الدالّ الكلامي مخالفاً للمدلول الواقعي - وذلك لترسيخ أهدافها ومعانيها الخاصة انطلاقاً من رؤيتها وتوجهاتها.

فعلى سبيل المثال : عندما قامت بعض الجيوش الأوروبية بـ "الاستعمار" ادعت لمن حولها بأن ذلك من باب "نشر الحضارة"، ثم لم يتركوا إلا خراباً ودماراً ونهباً للثروات.

ومثل هذا التضليل الكلامي للدلالات له أثره وصبغته على الصورة الذهنية للأفراد في رؤيتهم للأمور.

المراجع :

[1] يُنظر : التضليل الكلامي وآليات السيطرة على الرأي (ص: 19).
[2] يُنظر المصدر السابق (ص: 74).
[3] السياسة واللغة الإنجليزية لجورج أورويل (ص: 134).
[4] معجم مصطلحات الإعلام (ص: 87).

المصادر :

[1] التضليل الكلامي وآليات السيطرة على الرأي (الحركة السفسطائية نموذجاً)، تأليف : د. كلود يونان. دار النهضة العربية.
[2] معجم مصطلحات الإعلام، تأليف : أحمد زكي بدوي، الطبعة الثانية، 1994م.
[3] لغة السياسة، تأليف : كلاوس جورج، ترجمة : ميشال كيلو.
[4] سيكولوجية الجماهير، تأليف غوستاف لوبون، ترجمة : هاشم صالح، ط 1، دار الساقي.
[5] كفاحي، أدولف هتلر، ترجمة هشام الحيدري.
[6] التلاعب بالوعي، تأليف : سيرجي قره-مورزا، ترجمة : عياد عيد، وزارة الثقافة، دمشق.
[7] رواية 1984، تأليف : جورج أورويل، ط 3، المركز الثقافي العربي، المغرب.
[8] بحث الصياغة اللغوية والتضليل الإعلامي، تأليف : أحسن خشة، جامعة باجي مختار.
[9] أسلحة الخداع الشامل، تأليف : شيلدون رامبتون وجون ستوبر، الدار العربية للعلوم.
[10] مقال الدعاية السياسية أثناء الحروب، دراسة حالة الدعاية السياسية في الحرب على العراق للدكتورة: نبيلة بن يوسف.
[11] G. Orwell. Politics and English Language.

إبداعات الفنون

أول عدد يجتمع فيه ثلاثة أبواب من الفن معاً :

رسم .. شعر .. تصوير

قيل عن الفن :

- الفن ليس غاية في حد ذاته .. بل وسيلة لمخاطبة الإنسان

- قد يهرم جسد الفنان وعقله .. لكن قلبه لا يهرم لأنه مصدر فنه

- الرقيّ في أن يجتمع الفن والعلم والأخلاق معاً

أنت كثير في واحد

- أمل آل شبلان (عقد الجمان) Amal - egd aljoman
قسم اللغة العربية بجامعة الإمام - معدة دورات في التفكير الإبداعي - فنانة تشكيلية - مؤلفة كتاب (جناح الليل)

ليس الفرد وحده .. ليس وحيداً كما يظن .. هو كثير في واحد .. تأمل يديك ربما كلتاهما يمين .. قدميك .. رأسك ليس ثابتاً كما تظن .. لست تعي ما تريده كما تتوهم .. تأمل عينيك في المرآة .. إنها كثير وليستا فقط اثنتين .. تأمل وستجد أنك لست أنت وأنك كثير .. وأنك لا تعرفك .. عيناك فقط ستكشفك !

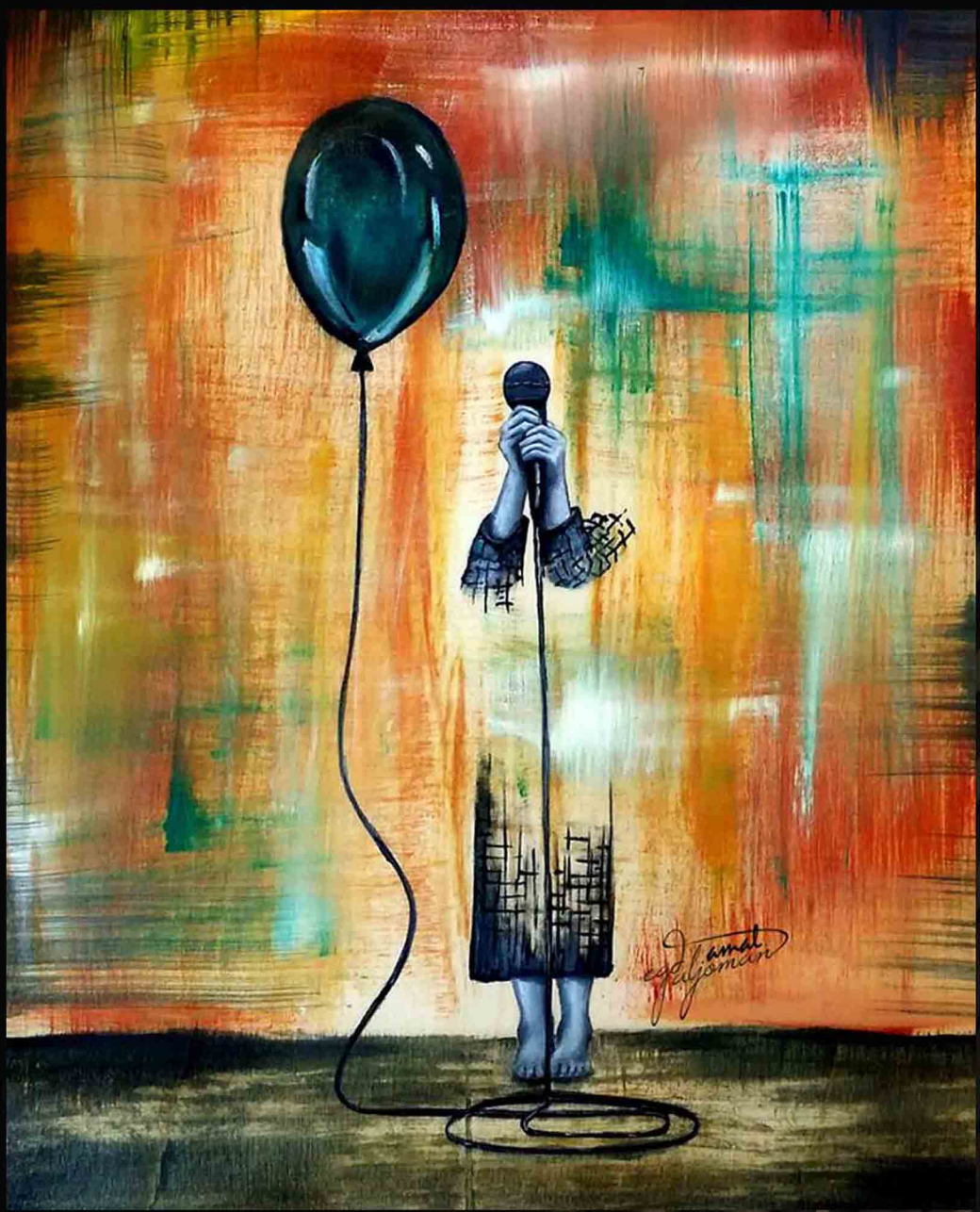

الصراخ

هـو تجربتـك لقيـاس ألمك ..
أو لتحسـس عمـق ألمـك
أمام حقائق الصوت !

الحنين سراب

أتظن أن يلد الحنين
أجنة لقاء ؟!
أتريد إطفاء وهجك
بماء السراب ؟!
الحنين سراب ..
وحيرته بلهاء ..
تخلص من الضياع
قبل أن يأكلك الجدب !

لكل زمن مقاسه من الأشخاص !

لا أحد يستطيع أن يمدهم إلى أبعد من أماكنهم ... إنهم أقصر من العيش في زمنين..!

الشعر

يقول (ابن رشيق) في كتابه (العمدة) :

" وإنما سمي الشاعر شاعراً ؛ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير "

ذاتُ المآذنِ

مقتطفات من قصيدة إهداء إلى وطني ومكة ، من فانكوفر - كندا

رغدة أبو بكر كردي ، بكالوريوس قرآن وعلومه ، ماجستير بلاغة ونقد ومنهج أدب إسلامي

يا حلو وجهك مؤنسٌ لمنامي
أرأيتِ قطّ عذوبةً بتناقضٍ ؟

هاك القصيد يجيد رسم هيامي
فالحرّ يعبد صاحب الإنعامِ

هذي عروقي من سموّك ترتوي
والشرّ خير للتقيّ إذا ارتضى

فيفيض إحساسي على أقلامي
قدر الإله فعاش باستسلامِ

نفَسي نقيّ هواكِ يا أرضاً بها
والذلّ عزٌّ للفقير لربه

كلّي ولا أبغي سواكِ مرامي
هو ذو الجلالِ -علا- وذو الإكرامِ

من خدّك الغربيّ تسمق شامة
ءألامُ ياوطني بحبٍّ مفرطٍ ؟!

هي قلب مكةَ مَعلمُ الإسلامِ
أنا لستُ أعبأ بعد ذا بملامِ

إني أغار عليكِ حسنُكِ فاتنٌ
صحراء أرضكِ غير أنك جنةٌ

صونيه من نظراتِ بعض لئامِ
فيها الأذانُ وعطر خير كلامِ

ولتقطفي ورد الحلال فإنه
إن جاء ذكركِ فالشريعة والغنى

بستان طهركِ لا قفارَ حرامِ
كرمُ الضيافةُ وافرُ الإطعامِ

لمّا ركبتُ الغيمَ كنتِ مساجدًا
يا أم كل المسلمين وحضنهم

دور الهدى، ذهبيّة الآكامِ
نفديك بالأرواحِ والأجسامِ

وطنٌ به الحرية العظمى إذا
ذات المآذنِ أنتِ أرض طهارةٍ

قيستْ بحكم الله للأفهامِ
قبس السلام إليك عذبُ سلامي

سُبحانك

عبدٌ ضعيفٌ ياقويٌ يلوذ بكْ
أنت الرؤوف وأنت ياربّ الملكْ

أغفو وهمّي سرمديٌّ عاصفٌ
والأرض بي ضاقت ونفسي والفلكْ

وشعرتُ دربي سابحًا متحرّكًا
ولوهلةٍ قد ضعتُ في ليلٍ حَلَكْ

الله أكبرُ من جيوشٍ كآبةٍ
مما تفجّر يافؤادُ وأذهلكْ

قم واستعن بالله واغسل عنك ما
يختال في عينيك مما أوجعكْ

كم قلتَ لما الضيق داهم والأسى:
إني كسير يارحيم فجبّرك

هذا الكريم البرّ يكرم عبده
أتخال في عمق المواجع ودّعك؟

وإذا اختنقتَ من الهموم وطوقها
لا تنسَ أن الله يومًا عدّلكْ

سواك من لاشيء حتى صرتَ في
دنياك تبصرُ كل يوم مسلككْ

أنت الكسير هو الكبير هو القوي
إن شاء سخّر كل سعد الكون لكْ

لا تأس إن مذاق كسرك رفعة
روحٌ تُهذّبُ، ينجلي من غرّرك

ستحسّ في السراء طعمًا آخرًا
والذلّ للمولى يصير هدىً معَكْ

لا ضيرَ تكسرُ مرة فافرحْ بها
قدرُ الحكيم فكم وكم قد أسعدكْ

لا تخش كَسْرَ القلب لكن سُكْرَهُ
فاحذرْ وقضّ بذاك دومًا مضجعكْ

فاخفض جناحكَ ثم هيّئ بسمةً
واسكبْ مناجاةً تُسلّي مدمعكْ

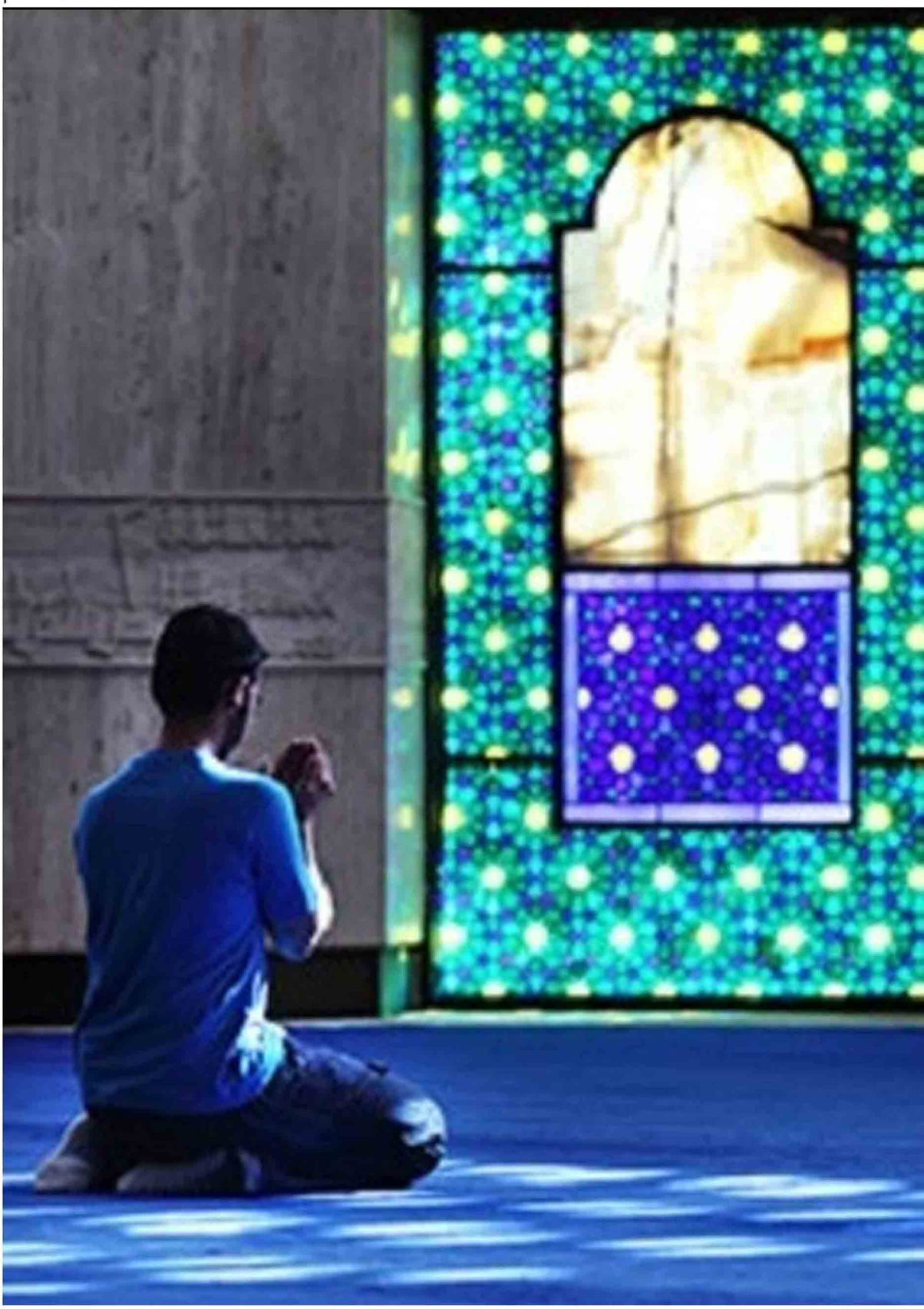

تمادىٰ العتابُ

ألماً تمادى للنساءِ عتابي
إذ هبّ عُرْيٌ فاعتلى أترابي

لا أدّعي التقوى ولكني لها
أسعى وأحفظُ عزّتي بكتابِ

إني أجاهدُ دفعَ طيْشي والهوى
لرضى الكريمِ بملبسي وحجابي

وأسيرُ والتيَّارُ يعكِسُ وِجْهَتي
فيُعينني المولى لنهْجِ صوابِ

قومٌ إذا عشقوا الثراءَ تفسَّخوا
ماذا إذاً للفقر يا أحبابي ؟!

عجباً ! و بي حجمُ السماءِ تساؤلٌ :
ءألفتِ حقّا ملبسَ الأغراب ؟

لا تهربي هذا السؤالُ حكايةٌ
فيها فصولُ مذلّةٍ وتَبَابِ

"تبدين جامحةً رويدكِ" قاطعتْ
"شمسٌ أنا ، هذا القماشُ ضبابي

نحو التحررِ بتُّ أرسمُ لوحتي
قلبي تمرّدَ فانتزعْتُ ثيابي!؟"

ماعدتُ قادرةً على كبتِ الأسى
والنورُ يُحجبُ في سلوكِ شَبابِ

باللهِ مهلاً فالطريقُ يخيفني
وختام دنيانا لحافُ تُرابِ!؟

فتنٌ وقد فُتحت علينا مِثلمَا
فُتحتْ على الهَلْكَى من الأحزابِ

كمْ مُؤسفٌ هذا التنافسُ للدُّنى !
كمْ مُخجلٌ بيعُ الحيا لسَرابِ !

يالهفتي و الحزن يعصرُ مُهجتي
وغَدَا التستُّر خيمةَ الأعرابِ

نسيَتْ حبيبتنا بأنَّ إلهنا
وصفَ الحجابَ بصيغةِ (الجِلبابِ) !

غفلتْ بأن لِباسَها فخرٌ لها
وتصاغرتْ ، ويحاً لِذي الألبابِ!؟

مهلاً فجُحرُ الضّبِّ ليس مكانَنا
و طموحُنا (الأعْلَوْنَ) يا أصحابي

لما رضينا الجُحْرَ ضاعتْ قِمّةٌ
سُكّانُها كُنّا بلا أنسابِ

لكنّ فَأْلاً بالحنينِ يُعيدني
سُكنى الشموخِ وثُلَّةَ الأحبابِ

Shutterstock.com

روحُ الصحابِ

روح الصحاب ألذّ من طعم العسلْ
سُحُبٌ تَسِحُّ الغيثَ تُغدِقُ لا تملْ

تَزْوَرُّ شمسٌ عند وهج قلوبهم
وتشعُّ من بسماتهم سُبُلُ الأملْ

لمّا حبانا الله عيشاً بينهم
كانوا لنا بإخائهم رَحِمٌ وَصِلْ

لا زلت أذكرُ - والربيعُ يُثير بي
شجناً - مواقفهم وحاشا ترتَحِلْ

لا زال همسٌ في وَرَيْقاتِ الصِّبا
يحكي لي الآمالَ خُطَّتْ في عَجَلْ

سأظلُّ - والظِّلُ البديع وِصالهمْ -
حُبْلى بأشواقِ الودادِ المُتّصلْ

التصوير المفاهيمي

شرح وأمثلة : سعد عبد الله الحربي

انستقرام Creativity3d

فنان فوتوغرافي ومصمم ومدرب.
له أعمال متنوعة في التصوير والتصميم.

- عضو في الاتحاد العالمي لفن التصوير الفوتوغرافي (فياب) - (fiap).
- تعاون مع بعض المجموعات الفوتوغرافية.
- خدم هذا المجال أكثر من ١٥ سنة.
- حصل على شهادة شكر وتقدير من جمعية (ICS) الأمريكية ومنظمة (فياب) في التصوير الفوتوغرافي.
- شارك في معارض محلية ومسابقات عديدة في التصوير.
- شارك في ملتقى (ألوان) لمدة ثلاث سنوات كفنان تُعرض أعماله.
- شارك في ملتقى (ألوان) لمدة سنتين كـمُتحدث وأقام ورشتين بها.

التصوير المفاهيمي : ليس مجرد التقاط صورة أو منظر أو أي شيء يعجب المصور فقط ، بل هو أعلى وأرقى من ذلك ، حيث تكون الصورة ذات هدف ورسالة وقيمة ، فتحتاج إلى فكرة جديدة وقوية وتنفيذ مناسب لها .. وهو أحد أنواع فنون التصوير الإبداعي التي تحمل مغزى خيالي وفكرة ذات معنى.

ويحتاج إلى تخطيط ودراية وتفكير عميق في الموضوع وطريقة تطبيقه وإعداده، ويدخل في جميع أنواع الفنون البصرية.

أيضاً يحتاج التصوير المفاهيمي إلى توظيف الخيال ومهارة المصور ، وفي وبعض الأحيان المعالجة لإيصال فكرته وموضوعه بطريقة متميزة.

فهو مزيج من الإبداع العقلي والفكري للمصور مع الإحساس الوجداني العالي ونظرته الدقيقة والحساسة مع مهاراته وتكنيكاته.

Nikon

الإسلام سلام

حلمي .. لم ولن يتوقف !

واجه مخاوفك !

حامي الوطن والمواطن بإذن الله

السلام قوة

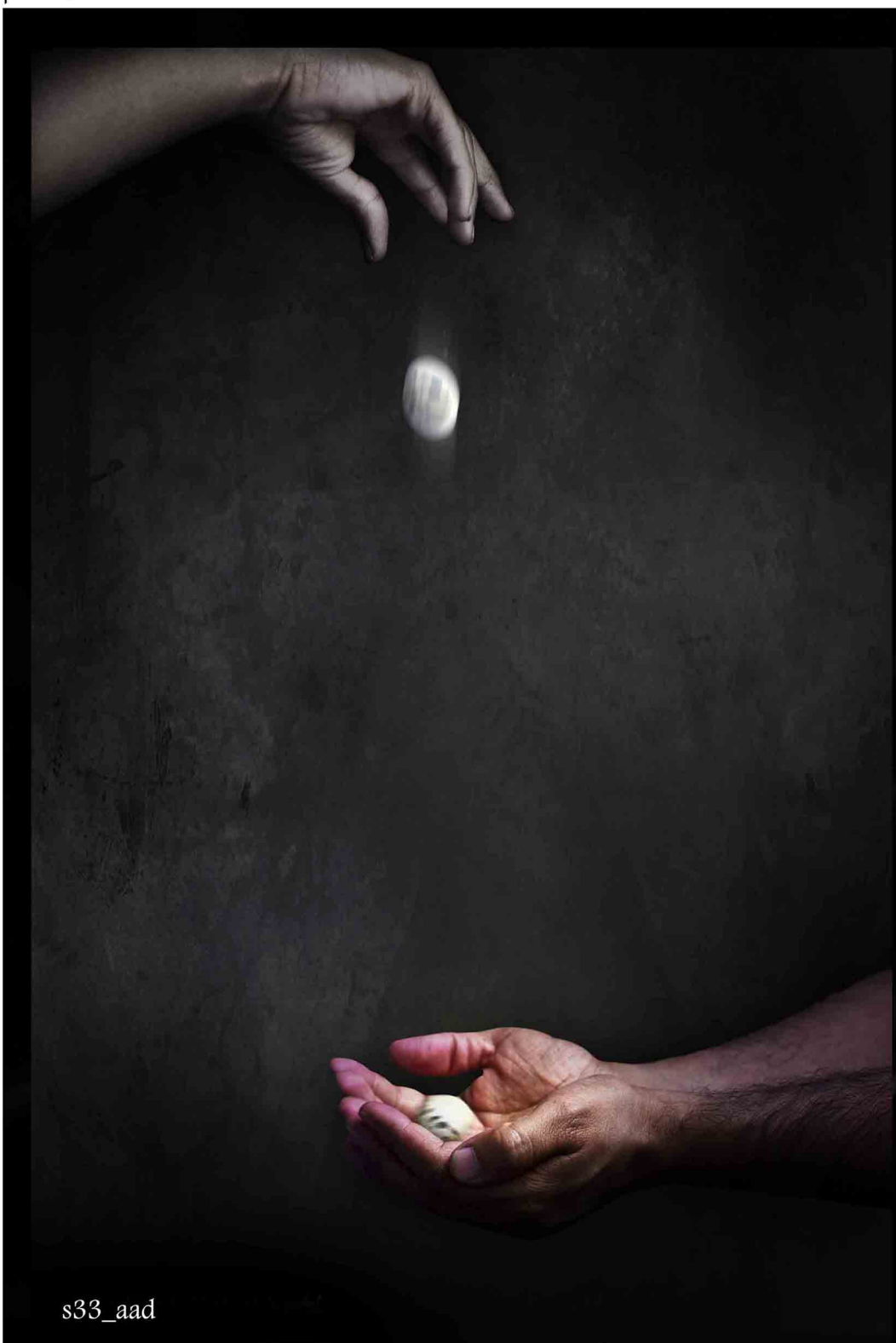

s33_aad

هناك مَن يرمي .. وهناك مَن يحمي !

صرخة ضمير

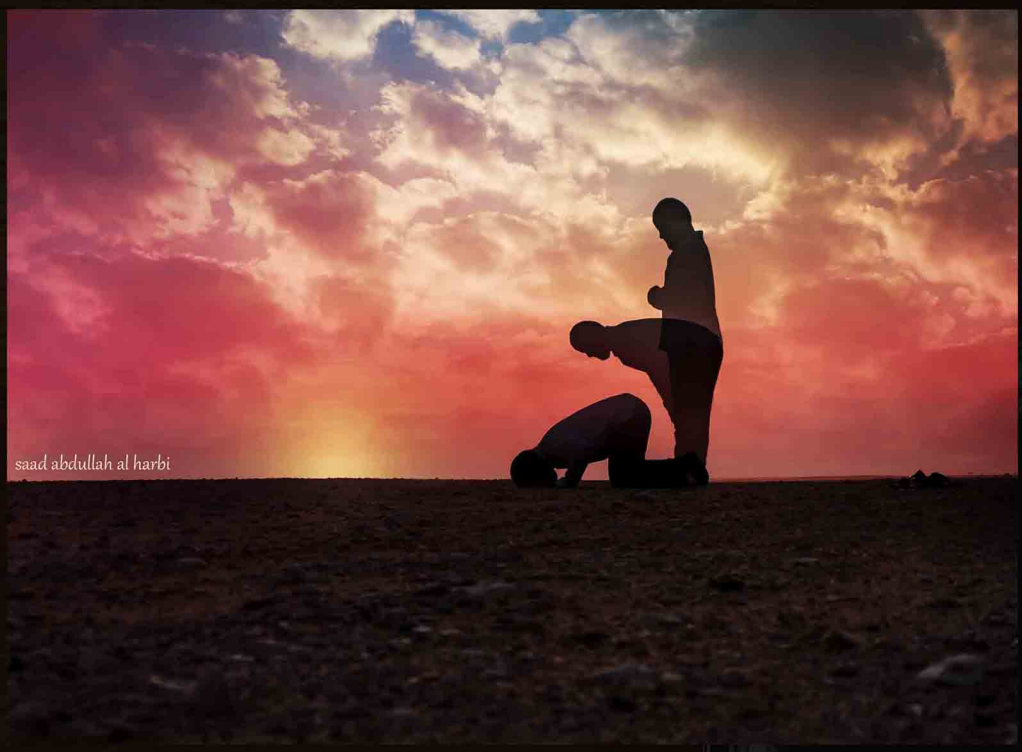

راحتي : وجُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً

فقدان السيطرة !

المسار .. الحياة والموت

مراحل حياة الإنسان !

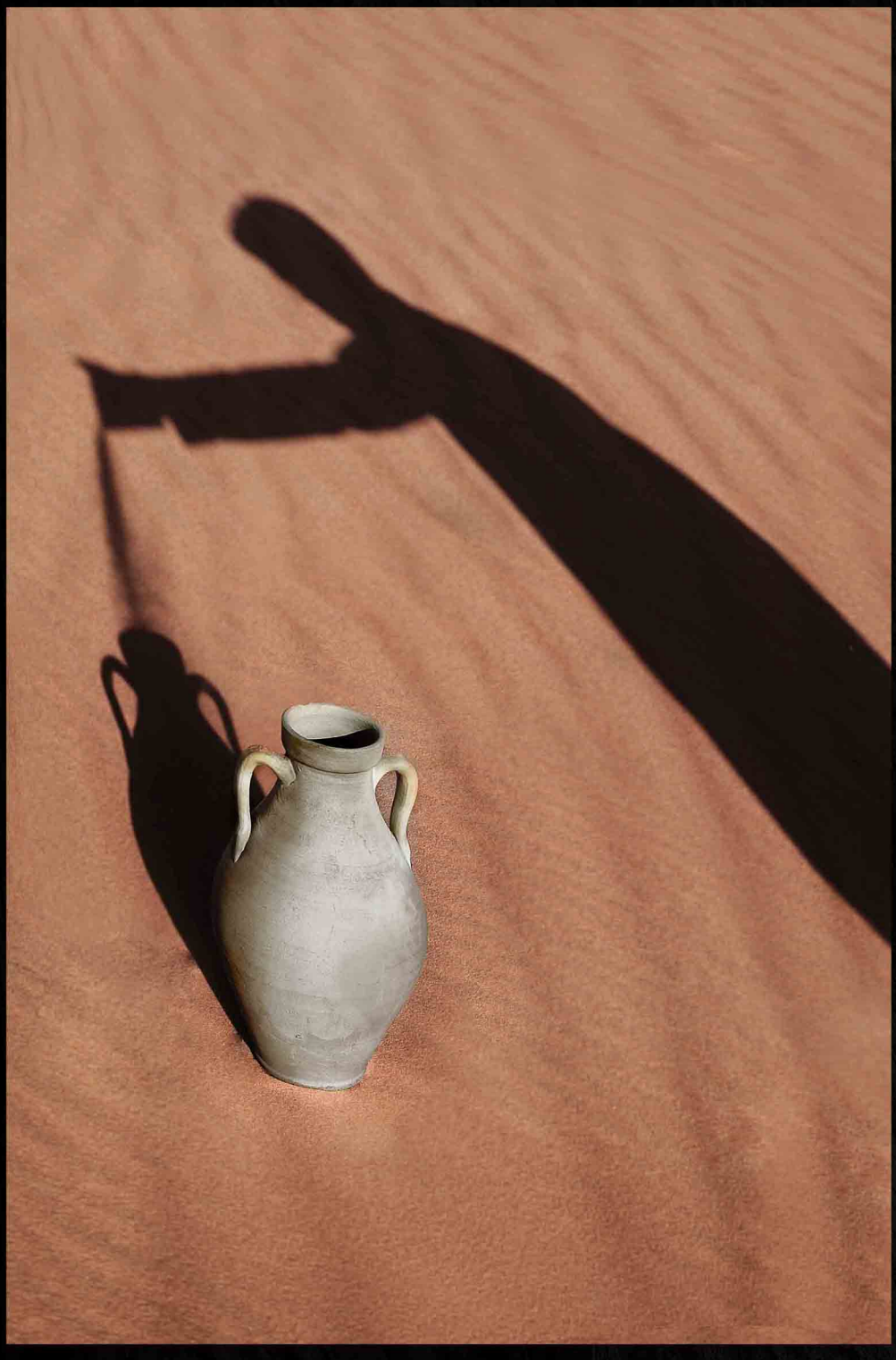

العمل في الخفاء

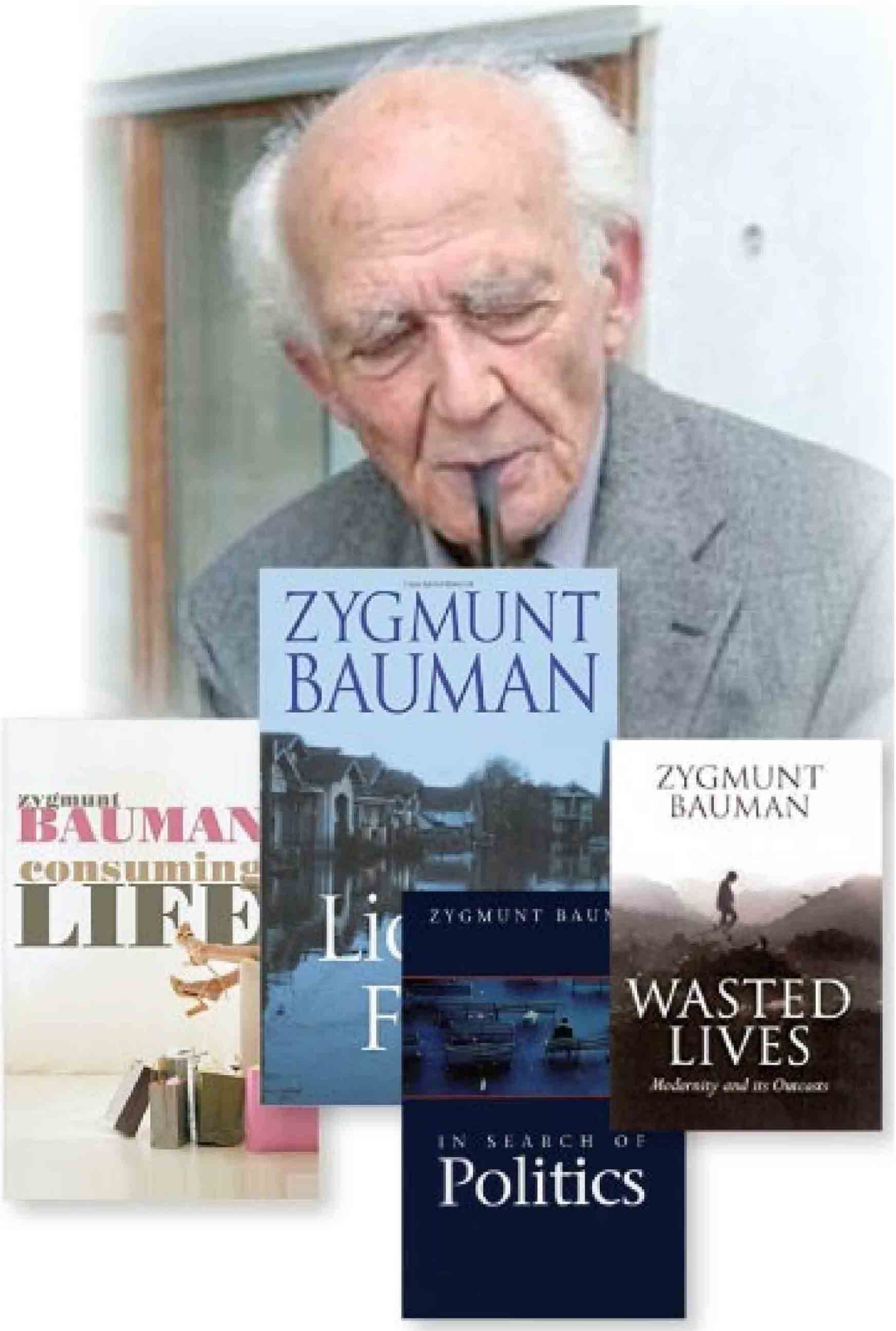
ZYGMUNT
BAUMAN
zygmunt
BAUMAN
consuming
LIFE
ZYGMUNT BAUMAN
WASTED
LIVES
Modernity and its Outcasts
IN SEARCH OF
Politics

لقاء العدد:
زيغمونت باومان

إعداد واختيار :
أ. عبدالكريم الدخين
تقديم : م. أحمد حسن

يختلف لقاؤنا هذا العدد عن العددين السابقين كونه مع شخص توفي هذا العام (في 9 يناير 2017م) عن عمر 91 سنة.
لكنه من الشخصيات المميزة عالمياً والذي إن اختلفنا مع بعض آرائه إلا أنها جديرة بالعرض لبصمتها الكبيرة في النظر إلى العالم اليوم من منظور الحداثة Modernity وكذلك ما بعد الحداثة Postmodernity.
إنه عالم الاجتماع والفيلسوف البولندي زيغمونت باومان Zygmunt Bauman المولود في 19 نوفمبر 1925م لعائلة يهودية، وقد رفض الهجرة مع والده إلى إسرائيل والمشاركة في المشروع الصهيوني للاستيطان بفلسطين، ثم مؤخراً انتقد السياسة الإسرائيلية وقام بتشبيه ما تفعله مع الفلسطينيين اليوم من حصار بما فعله الألمان فيهم إبان الحرب العالمية. وكانت له أراء جريئة في كتابه (الحداثة والهولوكوست) Modernity and the Holocaust.
كذلك رغم اعتناقه للشيوعية في شبابه إلا أن ذلك لم يمنعه من انتقاد الحكومة الشيوعية البولندية والتي كانت وراء اتهامه بمعاداة السامية حتى اضطر لترك جنسيته البولندية ليتمكن من السفر إلى خارج البلاد حيث استقر في انجلترا منذ 1971م.
لقد تميزت كتابات زيغمونت باومان في العقود الأخيرة من حياته بالنقد العميق للفلسفات الحداثية وما بعد الحداثة، حتى أنه عمد للتفريق بين اختلاف تعريفات الحداثة التي تعددت مع كل مفكر بأن قسمها إلى حداثة صلبة Solid وحداثة سائلة Liquid، بل وقد انتشر هذا المصطلح - أي السائلة - في عدد هام من كتبه مثل : (الحب السائل) - (الحياة السائلة) - (الخوف السائل) - (الأزمنة السائلة) حيث عملت المؤثرات الحداثية المختلفة من عولمة وإعلام ونسبية أخلاق على توحش الحكومات، واستباحتها للإنسان، ودفعه إلى الحروب العالمية والهولوكوست، أيضاً اشتهرت كتاباته في نقده لما بعد الحداثة وللفلسفات المادية والاستهلاكية Consumerism وربطها بالمنظور الحداثي وما بعد الحداثة. وكيف انعكست على الإنسان ومتطلباته وتحويله مع الوقت إلى كائن استهلاكي أكثر من كونه منتجاً.
وفي محاولة للاستفادة من عصير أفكار زيغمونت باومان وكتبه التي بلغت 57 كتاباً ومقالاته التي قاربت المائة مقال : قام المحاور الألماني بيتر هافنر Peter Haffner بلقاء معه في مجلة (المجلة) Das Magazin الألمانية (وتم نشرها بالإنجليزية في مطبوعة 032c العدد 29 الصادر في بدايات عام 2016م).
حيث تعمد محاوره بيتر هافنر أن يتناول أشهر المحاور التي كتب فيها زيغمونت باومان فخرجت كالتالي :
المحور الأول : (الحب).
المحور الثاني : (الفرد وشبكة العلاقات الحاكمة).
المحور الثالث : (التقنية).
المحور الرابع : (اليوتوبيا) أي المدينة الفاضلة أو المثالية.
المحور الخامس : (النفايات البشرية).
المحور السادس : (الخوف).
المحور السابع : (السياسة).
المحور الثامن : (القاتل الماكث في داخلنا).
المحور التاسع : (السعادة).
المحور العاشر : (المستقبل).
وقد قامت بترجمتها والتقديم لها الأستاذة : لطفية الدليمي، وهي منشورة على موقع جريدة المدى بعنوان : (العالم كما يراه فيلسوف الحداثة السائلة : حوار مع السوسيولوجي الفيلسوف زيغمونت باومان) .. وهو ما صنعنا من بعض مقتطفاته حواراً نرجو أن يكون مفيداً كالآتي :

س- التطور التقني قاد دوماً إلى إحداث تغيير في المجتمع ، أما اليوم فإن التطور التقني بات ينطوي على ماهو أكثر من مفهوم التغيير، لِمَ هذا الأمر ؟

ج- لأننا لم نعد نوظف التقنية في سبيل إيجاد وسائل مناسبة تقود لتحقيق غاياتنا ؛ بل صرنا - وعلى العكس من قبل - نسمح لغاياتنا بأن تحددها الوسائل التقنية المُتاحة، أي - بكلمات أخرى - ما عُدنا نطوّر التقنية بقصد إنجاز ما نبتغي إنجازه ؛ بل صرنا ننجز ما تتيح لنا التقنية الحاضرة إنجازه.

س- ولكن ألم تكن هذه الحالة هي السائدة على الدوام ؟ إذ منذ اختراع العجلة وصولاً إلى انشطار الذرّة فإن التطورات التقنية استُخدِمت في كل المجالات الممكنة سواء أكانت خيّرة أم شرّيرة ؟

ج- المسألة برمّتها هي مسألة البعد المفاهيمي : بالطبع أثرت التطورات التقنية على الطريقة التي نعيش بها ؛ غير أن النتائج التي جاءت بها كانت عرضة للانتقادات دوماً. هذه هي الحالة تماماً عندما اخترع (غوتنبرغ) المطبعة ؛ إذ ساد شعورٌ بين أفراد الطبقة المثقفة تثقيفاً عالياً بأن هذا الاختراع سيقود لا محالة إلى الانحلال الأخلاقي، واشتكى هؤلاء الأفراد من (أن كل فرد ستتاح له إمكانية القراءة) لأن الرأي السائد بينهم كان ضرورة أن يبقى أفراد الطبقات الدنيا غير متعلمين أو قادرين على القراءة ؛ فقد رأى أفراد الطبقات العليا أن القراءة تفسِد رغبة غير المتعلمين في الانكباب على العمل.

س- ولكن هذه الحالة هي تماماً ما حصل مع الشبكة العالمية (الإنترنت) ؛ إذ وفرت هذه الشبكة التعليم المجاني لملايين يصعب إحصاؤها من الأفراد في أكثر بقاع العالم فقراً - ذلك التعليم الذي لطالما حُرِموا منه لسنوات طوال - إذن، لِمَ هذه الشكاوى غير المسوّغة ؟

ج- تميل التطورات التقنية تأريخياً لأن تحصل في خطوات صغيرة ؛ إذ كان دوماً ثمة ابتكارات هنا أو هناك، ولكن ليس بمقياسٍ عالمي وبعيداً عن أية نتائج ذات زخم ثوري، كما لم تبلغ تلك الابتكارات كل المجتمع وطريقة حياة جميع أفراده. ما كان يحصل في العادة هو امتصاص وتكييف تلك الابتكارات بحيث تصبح جزءاً من الحياة اليومية للمجتمع، أما اليوم فقد باتت الابتكارات مختلفة تماماً عمّا سبق، لأن التغيّرات التي تأتي بها التقنية في أيامنا هذه غدت تؤثر في كل أفراد المجتمع، كما باتت توفّر إمكانية نشوء بعض التوجهات الشمولية، فقد أطلق أحد الأثرياء الأوليغاركيين الروس (ديمتري إيتسكوف) مشروعه المسمى:
(المبادرة 2045) والتي ترمي لجعل الدماغ البشري شيئاً يمكن الاستغناء عنه !!
ويموّل هذا الثري اليوم مشروعاً لتطوير آلة ألكترونية مُصممة للتفكير مثل كائن بشري، ولست أدري كم هي واقعية هذه الفكرة، ولكن لابد من وجود من يفكر بمثل هذه الأمور التي كانت تعدُّ غير واقعية حتى وقت قريب للغاية، وها نحن نشهد - للمرة الأولى - كيف يمكن للآلات أن تكون مصدر تهديد جدّي لأنماط التفكير البشري ؟

س- أنت ترى في الموضة مثالاً للحال الذي انتهينا إليه في المجتمع الإستهلاكيّ ؟

ج- تتمحور ظاهرة الموضة حول فكرة أن كل شيء نبتاعه ينبغي تجاوزه وركنه سريعاً في زاوية المُخلفات، وقد يكون لدينا الكثير من الملابس الجيدة - مثلاً - والتي لا تزال مناسبة للإرتداء ؛ ولكن لأنها صارت قديمة وخارج نطاق الموضة السائدة فقد بتنا نشعر بالخجل من ارتدائها ثانية، كما صار الخوف يتلبّسنا خشية رؤيتنا ونحن مرتدين لتلك الملابس !!
قد ينظر المدير في العمل إلينا في مكتبه ويرمقنا بنظرة ساخرة من أعلى إلى أسفل ثم يتساءل مُتعجباً : " كيف تجرؤون على الظهور بملابس مثل هذه ؟ "، وكذا الأمر مع الأطفال إذا ما ذهبوا إلى المدرسة وهم مرتدين ملابس السنة الماضية ؛ إذ سيكونون عرضة للتشنيع السخيف الذي لايطاق. ثمة ضغط هائل علينا لكي نتماثل في سلوكنا مع السلوك الجَمعي للآخرين.

س- تكشف الموضة لنا الكيفية التي بات فيها المجتمع الاستهلاكي متخصّصاً بارعاً في

إنتاج القمامة وبخاصة في جانب مهمّ من تلك القمامة التي تدعوها أنت (إنتاج الفضلات البشرية). لماذا تصنف غير العاملين في المجتمع المعاصر في خانة النفاية ؟

ج- لأن المجتمع المعاصر لا يرى أية فائدة يجنيها منهم، وأن حياتهم باتت غير ذات قيمة تماماً مثل حياة اللاجئين، وهذه بالطبع واحدة من النتائج الصارخة للعولمة والارتقاء الاقتصادي. إن أعداد الذين خسروا وظائفهم منذ بواكير المسيرة الصاعدة للرأسمالية في العالم كله لا تزال في تصاعد مستمر لينمو بمعدل غير مسبوق وسيبلغ عما قريب حدوداً لا يستطيع العالم تحمل تبعاتها القاتلة، ومع كل انتصار تحققه غزوات الأسواق الرأسمالية ؛ يتعاظم بالتوازي سيل البحر المتلاطم من الرجال والنساء الذين فقدوا أعمالهم وملكياتهم وانتُزِعت أراضيهم منهم وباتوا مكشوفي الظهر وخارج نطاق الأمان الذي توفره شبكات الرعاية الاجتماعية، وتتزايد أعداد تعساء الحظ هؤلاء بالألوف وربما بالملايين أحياناً خلال سنوات قليلة.

وهذا الأمر خليق بإنتاج طبقة دنيا جديدة من المُهمشين، طبقة من المستهلكين الفاشلين غير القادرين على الوفاء بمتطلبات المجتمع الاستهلاكي ؛ ولهذا السبب لا يعود لهم ثمة مكانٌ في هذا المجتمع، وما عاد المجتمع ذاته يعرف أين يضع هؤلاء المُهمشين بعد أن ضاقت أماكن النبذ الاجتماعي كما ضاق الطلب على العمالة الرخيصة الجاهزة للتصدير.

ولا ينبغي أن يخفى عن الأفهام أن نجاح دولنا الموصوفة بسيادة (الديمقراطية الاجتماعية) اعتمد على تلك الإمكانية لوقت طويل، لكن كل زاوية في العالم باتت مشغولة وما عادت لديها القدرة على تحمل المزيد من الأعباء البشرية. هذا هو جانب الجدّة غير المسبوقة بشأن الأزمة البشرية الحالية التي تطال عالم المُهمشين.

س- تُرينا الإحصائيات الرسمية التي تعود لبدايات خمسينات القرن الماضي أن أعداد اللاجئين حينها بلغت ما يقارب مليوناً من البشر، معظمهم من هؤلاء الموصوفين بالأفراد المُزاحين نتيجة الوقائع القاسية للحرب العالمية الثانية، أما في أيامنا هذه فتميل أكثر التخمينات تحفظاً لحصر أعداد اللاجئين في حدود اثني عشر مليوناً، ويمكن أن نتوقع مع عام 2050م ملياراً من اللاجئين المنفيين الذين ستضيق بهم الأرض، ولن يجدوا حتى معسكر إقامة مؤقت (كامب camp) للمكوث كفترة انتقالية.

سيكون ثمة المزيد والمزيد دوماً من اللاجئين والمهاجرين والمُهمشين، فكيف لنا أن نعرف بأن هذه الظاهرة ليست ببساطة ظاهرة وقتية طارئة (يمكن أن تشهد تغيراً في المستقبل) ؟

ج- أن تكون مقيداً في حدود معسكر للاجئين يعني تماماً أن تكون مطروداً من العالم الذي تتشاركه البشرية، واللاجئون لا يُعدّون فائضاً عن الحاجة وحسب، بل يُحسَبون كائناتٍ لا فائدة منها. ما عاد اللاجئون قادرين على النظر إلى الوراء وتلمّس طريق عودة لأوطانهم الأصلية، وفي الوقت ذاته فهم في أماكن الإقامة المؤقتة مسلوبين من كل الصفات التي تختص بهويتهم الإنسانية باستثناء صفة وحيدة فحسب : أنهم لاجئون، ولكن من غير دولة، ومن غير مأوى، ومن غير وظيفة تليق بالكائن البشري، ومن غير أية وثائق تشي بهويتهم الرسمية، ولما كان هؤلاء اللاجئون مُهمشين على نحو دائم ؛ فقد أصبحوا خارج نطاق مظلة القانون، وكما يرى عالِم تاريخ الإنسان الفرنسي (ميشيل لاغييه) الدارس لظاهرة اللاجئين في عصر العولمة ؛ فإن هؤلاء اللاجئين ليسوا خارج نطاق هذا القانون أو ذاك في هذه الدولة أو تلك ؛ بل هم خارج نطاق حماية كل القوانين وفي كل البلدان.

س- تقول إن أماكن إقامة اللاجئين هي أقرب للمختبرات التي يمكن فيها فحص ومساءلة نمط الحياة الجديدة والدائمة التغير على نحو يجعلها وقتية بشكل دائم، ذلك النمط الذي يترافق مع الحداثة السائلة ؟

ج- في عالمنا المتأثر بالعولمة يشكل اللاجئون الساعون للملاذ الآمن وكذلك أولئك الموصوفين باللاجئين الاقتصاديين : هدفاً جمعياً مُحبباً للنخبة الجديدة ذات السطوة العظمى، والحقيقة أن أفراد هذه النخبة هم الغيلان الشريرة والأوغاد الأنذال في كامل دراما اللجوء البشري.

لا ينبغي أن ننسى دوماً أن أعداد اللاجئين عصية على الإحصاء الدقيق لصعوبة حصرهم في أماكن محددة ؛ لذا تكون أعدادهم دوماً عرضة لأخطاء تخمينية فادحة، ومن جانب آخر فإن الحكومات تدعم الانحيازات الشعبية ولا تريد أن تدخل في مجابهة مع المصادر الحقيقية التي تشكل العنصر الداعم لانتخابها، ومن ثمّ سيكون أي انحراف عن تلك الانحيازات مصدراً لعدم اليقين الوجودي الذي سيدفع الناخبين حتماً إلى معاقبة الحكومات في الانتخابات.

إن المقيمين في أماكن احتجاز اللاجئين باتوا اليوم يتقمّصون الدور الذي تُرِك في عصور سابقة للساحرات والعفاريت والأشباح ونظائرها التي نقرأ عنها في الفلكلور الشعبي وحكايات الأساطير.

س- في سياق هذا التطور البشري ، لا تفتأ تكرر القول في غير موضع أن دولة الرعاية الاجتماعية تحولت إلى دولة أمنية. ما الذي يميّز بين الدولتين ؟

ج- دولة الرعاية الاجتماعية تجعل الجماعة البشرية القائمة على الضم والاحتواء نموذجاً معيارياً لها، أما الدولة الأمنية فتفعل العكس تماماً، لأنها تعتمد مبدأ النبذ والطرد خارج الجماعة البشرية عن طريق السجن والعقاب، وحينها تغدو الصناعة الأمنية في هذه الدولة واحدة من أهم الصناعات المرتبطة بتخليق النفايات البشرية، والتي يُعهَد إليها بمسؤولية التخلص من تلك النفايات.

س- في كتابك المعنون (الحداثة والهولوكوست) تدافع عن الأطروحة المثيرة التي تفيد بأن فكرة إبادة الكائنات البشرية على مقياس صناعي واسع هي واحدة من أفكار عصر الحداثة وليست ناجمة - بالتخصيص - عن النزعة القومية الألمانية المتشددة. إذن، هل ثمة إمكانية أن نشهد أوشفيتز (هو معسكر إبادة شهير في ألمانيا) جديد في أيامنا هذه ؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فتحت أي ظروف يمكن أن يحصل هذا الأمر ؟

ج- العصر الحديث ليس حقبة إبادات بشرية شاملة ؛ لكنه ببساطة أسهم في تخليق طرق حديثة يمكن بها ممارسة القتل المنهجي لأعداد كبيرة من البشر، وقد ساهمت ابتكارات مثل تقنية المصانع والبيروقراطية الصناعية في تحقيق هذا الأمر، ولكن لا ينبغي أن ننسى أيضاً أن العالم قد تغير كثيراً وقلب الكثير من الممارسات (الوحشية) السابقة، وما عاد الناس يقبلون بالفكرة اللاهوتية التي طالما سادت في

أوروبا القرون الوسطى، والتي مفادها أن الله الخالق حرم على مخلوقاته التدخل في أمور لا تعنيهم حتى لو كانت تلك الأمور مما لايحبون. أظن لو أن الإبادات الجماعية حصلت في اوروبا القرون الوسطى لما لقيت أي شجب أو إدانة، ولاعتاد عليها الناس كأمر مسلّم به وفقاً للاعتبارات اللاهوتية.

س- إذن نحن نمتلك القدرة على إعادة تشكيل العالم بالطريقة التي نرغب ؟

ج- العصر الحديث كان أيضاً عصر تدمير شامل للأسباب السابقة ذاتها ؛ إذ تطلّب السعي المحموم للتحسينات التقنية الرامية لبلوغ الكمال ؛ إبادة أعداد لا تحصى من البشر الذين حُسِبوا غير قادرين على التناغم مع مخطط الصورة المثالية للأهداف المبتغاة. كان التدمير هو جوهر الحداثة الجديدة، وجاء الإفناء لكل معيقات عدم الاكتمال المزعومة ليكون الحالة المميزة المصاحبة لتحقيق الكمال الحداثي، ويمكن النظر إلى مشاريع النازيين والشيوعيين في هذا الإطار، فقد سعى كلاهما إلى الاجتثاث الشامل والأبدي لكل ما هو عشوائي غير خاضع لضبط أو نظام بغية تكييف كل عناصر الحالة الإنسانية وفقاً لمراميهم.

س- المشروع القومي الاشتراكي يُفهم في العادة على نحو مخالف تماماً لكل تمظهرات الحداثة.. يُفهِمُ على أنه عودة للبربرية، وتمرد على الحداثة وعلى كل القواعد السائدة في المجتمعات الحديثة، وليس ثمرة لتلك الحداثة ؟

ج- هذا سوء فهم خطير، لقد نبع المشروع القومي الألماني من حقيقة أن كل أفعاله ليست سوى الشكل الأعلى والأكثر تمثيلاً لثمرات المبادئ الحداثية، بغض النظر عن الامتدادات المتطرفة شديدة القسوة التي بلغها ذلك المشروع، وقد كان المشروع حاضراً على الدوام لطرح أية شكوك أو سوء ظن به جانباً، ولم يكن يعيرها أي اهتمام يذكر.
لقد فعل الاشتراكيون القوميون الألمان والشيوعيون في أوقات اشتداد طغيانهم ما أراد الآخرون فعله بالضبط، ولكن الفرق هو أن هؤلاء الآخرين لم يمتلكوا العزيمة والقسوة الكافيتين، ولم نزل نحن نفعل في يومنا هذا ما فعله هؤلاء ؛ لكن أفعالنا تتم بأسلوب أقل افتضاحاً وأقل إثارة لبغضاء ونفور الآخرين.

س- ما الذي تقصده من وراء هذا ؟

ج- أقصد التباعد المتفاقم بين الكائنات الإنسانية وبين أتمتة Automation التفاعلات الإنسانية تلك الخصيصة التي بتنا ننزلق في وهدتها أكثر فأكثر ؛ بحيث صارت نمطاً قياسياً للعيش، وهنا ينبغي ملاحظة أن النتيجة الصارخة لهذا التطور التقني الكاسح هو فصل الأفعال الإنسانية عن النوازع الأخلاقية، واعتبار تلك النوازع وسوسات غير مجدية ولا طائل من ورائها.

س- في كتابك الموسوم (فنّ الحياة) تتحدّث عن السعادة، ذلك الموضوع الذي لطالما تناوله الفلاسفة القدماء. ويلاحظ في العصور الحديثة أن السعادة باتت أمراً يلهث الجميع في مطاردته ؟

ج- بدأ الأمر كله مع إعلان الاستقلال الأمريكي عام 1776م الذي أعلن صراحةً : (الحياة، الحرية، السعي وراء السعادة) كحقوق معطاة من الله لا يمكن إنكارها أو التفريط فيها. فمن الطبيعي القول أن الكائنات البشرية سعت دوماً لأن تكون سعيدة لا أن تكون تعيسة، وأن السعي وراء

السعادة خصيصة وسمت تلك الكائنات عبر التطور الخلّاق، ولو كان الأمر بعكس هذا الحال لكنا لا نزال قابعين في الكهوف بدل الجلوس على مقاعد وثيرة في أجواء مريحة، غير أن الفكرة الجديدة في موضوع السعادة والتي جاء بها عصر الحداثة هي أن أي فرد وكل فرد منا له الحق الكامل في السعي نحو السعادة بطريقته الخاصة التي يراها ملائمة له وحده فحسب، وكان التصريح الواضح بالحق الإنساني العام في بلوغ السعادة الفردية مؤشراً لبداية العصر الحديث.

س- ولكن لا يبدو أمر امتلاك السعادة في يومنا هذا بأقل مشقة من عصر الإمبراطورية الرومانية التي سادت فيها فلسفات : سينيكا، لوكريشيوس، ماركوس أوريليوس، إيبيكتيتوس. فما الذي تعنيه لك السعادة على المستوى الشخصي ؟

ج- عندما كان غوته بمثل عمري سُئِل مرة عمّا إذا كانت حياته سعيدة ؟ فأجاب : " نعم، كانت لدي حياة سعيدة إلى أبعد الحدود، ولكن ليس بمقدوري أن أقول كان لدي محض أسبوع واحد متصل من السعادة ".
هذا جواب أراه غاية في الحكمة، وأنا أشعر بالضبط بمثل شعور غوته. ثمة أيضاً قصيدة من قصائد غوته العديدة يقول فيها : إنه ليس هناك ما يبعث على الكآبة وانقباض الروح مثل سلسلة متواصلة من الأيام المشمسة !!
السعادة ليست بديلاً لأشكال الكفاح ومواجهة صعاب الحياة، فالبديل الوحيد لذلك الكفاح هو الضجر المميت.. ما لم تكن في الحياة مشاكل ينبغي حلها وتحديات ينبغي مواجهتها (وقد تفوق قدراتنا بعض الأحيان) فإن الحياة ستكون مملة بالتأكيد، والضجر هو أحد أكثر العلل الإنسانية المعيقة انتشاراً. لكن من جانب آخر (وأنا هنا أحدق في عينَي زيغمونت فرويد) فإن السعادة ليست حالة ممتدة، بل هي برهة أو لحظة فحسب، نشعر بالسعادة حينما نتجاوز المحن والحظ السيئ. يحصل أحياناً أن نخلع أحذيتنا الضيقة التي تضغط على أصابع أقدامنا فنشعر براحة وسعادة غير مسبوقة !!، أما السعادة الممتدة فهي أمر مريع شبيه بكابوس.
(تعليق : سبحان من قال عن أهل الجنة : "في شغل فاكهون" سورة يس 55، أي في نعيم متجدد يشغلهم عن أي شقاء بل حتى عن عذاب أهل النار).

س- (كلنا فانون في الحياة)، هذا ما تقوله في كتابك السابق الذكر. ما هو فن العيش وفقاً لرؤيتك ؟

ج- محاولة تجاوز المستحيل، فهم ذواتنا كونها نتاجاً لطريقة تشكيلنا الفريدة والمميزة عن غيرها، السلوك بمثل ما يفعل الرسام أو النحات ومواجهة المهمات التي نادراً ما يمكن إنجازها، وضع غاياتٍ لنا تتجاوز الإمكانيات المتاحة أمامنا في اللحظة الراهنة، وضع معايير لنوعية كل الأشياء التي نفعلها - أو نستطيع أن نفعلها - بحيث تكون تلك المعايير أبعد مدى من إمكانياتنا الراهنة. ثمة أمر آخر : بات اللا يقين هو الموئل الطبيعي لوجودنا الإنساني، ويمكن في أدنى الأحوال أن تكون القوة الدافعة للسعادة كامنة في محاولة السعي لجعل ذلك الوجود محفوفاً باليقين البشري الباعث على الراحة.

س- لم تكتفِ بأن تكتب في ميدان التنظير بشأن الانتقالة البشرية من الحداثة "الصلبة" نحو الحداثة "السائلة"، بل اختبرت أنت بذاتك تلك الانتقالة عن قرب. فما الذي كنت تبتغيه عندما كنت شاباً يافعاً ؟

ج- عندما كنت شاباً تأثرت - مثل الكثيرين ممّن عاصروني من الشباب - بفكرة سارتر عن مشروع الحياة Project de la vie أي : اعمل على تخليق مشروعك الخاص في الحياة وواظب على العمل تجاه هذا الهدف المثالي من خلال أقصر المسالك وأكثرها مباشرة نحو هدفك.
اتخذ قرارك بشأن الشخص الذي تريد أن تكونه، وحينئذ ستكون أمامك صيغة لصورة الشخص الذي تريد أن تكون عليه، وأن لكل نمط حياة ثمة عدد من القواعد التي ينبغي اتباعها، وكذلك عدد من المواصفات التي ينبغي أن نحوزها. بحسب رؤية سارتر : فإن الحياة (منذ البدء وحتى النهاية) تتقدم خطوة إثر خطوة في مسار محدد بالكامل حتى قبل أن نضع الخطوة الأولى في بداية رحلتنا.

كان لأطروحات زيغمونت باومان أثر كبير في أعمال المفكر عبد الوهاب المسيري رحمه الله، والذي تغيرت أفكاره في حياته أكثر من مرة انطلاقاً من الشيوعية ووصولاً إلى الإسلام، حيث برع في الكتابات الحداثية وتفكيك الإنسان ونقد الفكر الاستهلاكي الحديث ... فيقول :

" إن المطلوب هو حداثة جديدة تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانية عرض الحائط، حداثة تحيي العقل ولا تميت القلب، تنمى وجودنا المادى ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث "

كتب مختارة

توزن الثقافة بقدر ما تقرأ وتستوعب.

١- ملف غوغل

Die Akte Google

منذ أواخر شهر مارس 2015م وقد لمع في سماء الكتب سريعاً كتابٌ استقبلته جماهير الثقافة حول العالم باهتمام بالغ (رغم لغته الألمانية) لخطورة ما فيه من تنبيهات لا يعلمها أكثر البشر اليوم للأسف، والكتاب من تأليف الصحفيين السابقين ومختصي التسويق حالياً ونصائح الشركات : تورستن فريكه Torsten Fricke وأولريش نوفاك Ulrich Novak بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور روبرت أبشتاين Robert Epstein والدكتور توماس هوبنر Thomas Hoppner.

وتأتي الأهمية الكبرى للكتاب في تسليطه الضوء على ما تنمو إليه شركة غوغل اليوم بصورة لا يعلمها أكثر مستخدمي الإنترنت والهواتف المحمولة (الأندرويد خصوصاً)، وبما يجعل مليارات البشر هم (سلعتها) الرائجة للتوسع والثروة بما تجمعه منهم من بيانات شخصية أو خاصة : تبيعها وتستفيد منها اقتصادياً وربما سياسياً كذلك !

وهو ما يمكن تلخيصه بالكلمة التي في بداية الفصل الرابع : " إن تركيز البيانات الضرورية لتحسين نمط حياتنا في يد واحدة يعني في الواقع التخلي كلياً عن الرقابة والمحاسبة ".

الكتاب صدر منه 43 ألف نسخة للترجمة العربية هذا العام 2017م

عن عالم المعرفة، وقد ساعد التخصص الاقتصادي لمترجمه الدكتور عدنان عباس عليّ في ضبط الكثير من مصطلحات الكتاب.

ولعل أهم ما يشير إليه المؤلفان هنا هو كيف أصبحت شركة غوغل (إمبراطورية) ضخمة تضم تحتها مئات الشركات الأخرى إلى اليوم تتكاتف معاً وتقاوم العديد من قضايا انتهاك الخصوصية التي يتم رفعها ضدها ولا يعلم عنها أغلب الناس شيئاً (حيث لا تزال النظرة إلى غوغل على أنه مجرد محرك بحث ومتجر تطبيقات هي السائدة) ! بل وحتى عمليات البحث هذه لا يتوقف أكثرنا ليفكر إلى أيّ مدى يمكن لغوغل توجيهنا إليه اقتصادياً وسياسياً وفكرياً عن طريق إخفاء نتائج بحث معينة وإظهار أخرى وفقاً للإعلانات المدفوعة أو للتوجه الفكري أو السياسي أو الانتخابي لأحدنا !

والكتاب يقع في تسعة فصول :

- الفصل الأول :

غوغل - البيانات هي بترول العصر الحديث.

ويتكلم عن كيف صارت تجارة البيانات الضخمة هي التي تسير العالم اليوم أكثر من البترول .. ويعرض أرقاماً وحقائق من غوغل في ذلك والتي صارت ثاني أعلى قيمة في الأسواق بعد شركة آبل Apple.

- الفصل الثاني :

البدايات - قصة انطلاق المسيرة.

- الفصل الثالث :

غوغل تنمو بلا انقطاع.

وهذان الفصلان يتكلمان عن المراحل التاريخية التي نشأت في كنفها شركة غوغل على يد مؤسسيها لاري بيج Larry Page وسيرجي برين Sergey Brin. وذلك منذ كانت محرك بحث باسم BackRub ثم PageRank ثم مع ضخامة عدد عمليات البحث في الثانية الواحدة تم اشتقاق اسم لها من كلمة Googol التي تشير إلى عدد ضخم حسابياً وهو 10 أس 100 (أي 1 وأمامه 100 صفر وهو رقم مهول جداً).

ويشير الكاتبان كذلك إلى تميز غوغل بأسلوب جديد في صفحة البحث وهو خلوه من الإعلانات الظاهرة التي تشتت المستخدم أحياناً كثيرة بل وتعد عبئاً على سرعة الفتح والاستخدام (وهو ما تفتقده محركات البحث المنافسة) حيث لم تكن تعلم أنه سيتم التربح في غوغل أيضاً تجارياً ولكن بطرق مختلفة (وهي الاستفادة من مليارات البيانات المُدخلة وبيانات تصفح الأشخاص).

- الفصل الرابع :

قادة غوغل أغنى الأغنياء.

ينطلق الكاتبان في هذا الفصل من دلالة قوية مُستقاة من شراء غوغل لشركة Nest المختصة بأجهزة الحريق والاستشعار والثرموستات) فسعر شركة Nest الضخم لا يمثل شيئاً في ميزانية غوغل المتزايدة يوماً بعد يوم، حيث يرى المحللون أن غوغل تسعى بذلك لأن يكون لها يد (مادية) لتحليل بيانات البشر وسلوكيات حياتهم (مثل معدلات المكوث في الأماكن أو غلقها ومعدلات النشاط أو الدخول والخروج) لتصير هذه البيانات مع بيانات الإنترنت الأخرى صورة كاملة عن كل إنسان.

إن هذا الكلام له قيمة عند مَن يعرفون أننا على أعتاب تقنية (إنترنت الأشياء IOT) والتي تهدف إلى أن يكون لكل شيء من حولنا كود خاص (سواء سيارة أو أدوات أو أجهزة منزلية إلخ) بحيث يكون في حيز التحكم البشري عن طريق الإنترنت والحاسوب أو تطبيقات الهاتف !

العجيب هنا أن رؤوساء غوغل وعلى الأخص بيج وبرين : يبلغ أجرهما المُعلن 1 دولار !

في حين يعلم الجميع امتلاكهما لثروة بالمليارات وفيلاً ومساكن وأشياء أخرى كثيرة. فهل ذلك من أجل التهرب من الضرائب فقط ؟ أم الأمر أكبر من ذلك (مثلاً اشترى لاري بيج سفينة بـ 60 مليون دولار للتسلية) !

- الفصل الخامس :

غوغل في اليوم الراهن.

لن نطيل في سرد المعلومات فهي بالتفصيل والتوثيق في هذا الكتاب، وإنما يمكننا انتقاء معلومة واحدة منها وهي توقع المحلل الاقتصادي كولن غيليس Colin Gillis أن تكون غوغل هي أول شركة مُسجلة في بورصة أمريكية، يزيد سعر السهم الواحد فيها مضروباً في عدد الأسهم المتداولة في السوق عن تريليون دولار (أي مليون مليون أو ألف مليار).

ولذلك أكثر ما يخشاه القائمون على غوغل هو زيادة البلاد التي فيها أصوات تنادي بمنع احتكار وتوسع غوغل واستحواذها على أطنان من البيانات الشخصية.

- الفصل السادس :

غوغل عصية على الرقابة.

هذا الفصل من أكثر فصول

الكتاب إثارة، إذ يستعرض وقائع محاكمات ضخمة لثلاثي غوغل : الرئيس الحالي إريك شميت، ولاري بيج، وسيرغي برين، والتي كانوا في كل مرة يخرجون منها بدفع غرامات ضخمة (بالنسبة لميزانية غوغل لا شيء) في مقابل التصالح وإيقاف الدعوى من الحكومة الأمريكية (وصلت إحداها في عام 2011م إلى غرامة 500 مليون دولار) !

وكمثال على أحد هذه القضايا :

فمعلوم وجود قوانين تمنع محركات البحث والإعلانات من نشر محظورات حكومية أو غيرها حسب الاتفاقيات، ورغم ذلك فإن غوغل منذ عام 2003م وعن طريق شركتها المختصة بالإعلانات AdWords كانت تسمح بالإعلانات الكندية عن أدوية محظور استخدامها في أمريكا إلا بوصفات طبية.

وبالفعل دفعت غوغل وبعض محركات البحث الأخرى بسبب هذه الانتهاكات غرامة 31.5 مليون دولار في عام 2007م.

إلا أن عملاق الإنترنت (غوغل) لم يتوقف عن مثل هذه الانتهاكات إلى أن وقعت قضية عام 2011م التي ذكرناها آنفاً.

- الفصل السابع :

غوغل والولايات المتحدة.

في عام 2013م كانت صحيفة الغارديان البريطانية هي أول وسيلة إعلام تقدم أدلة قاطعة على تورط غوغل في التجسس على البيانات بالمشاركة مع مؤسسة الاستخبارات الأمريكية المسماة (وكالة الأمن القومي).

يقول إيريك شميت رئيس شركة غوغل : "التجسس أمر شائع منذ سنوات كثيرة، والمراقبة أسلوب يجري تنفيذه منذ سنوات، والقائمة طويلة، إني لا أندد بهذه الممارسات، فهي من خصائص مجتمعنا".

وهنا ملحوظة على هامش استعراضنا للكتاب وهي عدم معرفة أكثر مستخدمي الإنترنت (سواء عن طريق الحاسوب المكتبي أو المحمول أو الهواتف) أن كل ما يقومون به أثناء فتحهم لحسابهم على غوغل في تلك الأجهزة فإنه يتم تسجيله، حتى الرسائل الصوتية على الواتس آب ! والفضل في ذلك لشروط الاستخدام التي لا يقرأها غالبية الناس للأسف سواء عند إنشائهم لحساب في غوغل أو عند تنزيلهم للتطبيقات التي تحمل إذناً بالوصول إلى الكاميرا وغيرها.

وبالطبع هذه التسجيلات أو المعلومات الخاصة جداً غير متاحة إلا لاثنين فقط : أنت وغوغل ! ويمكن الدخول على الرابط التالي من حسابك في غوغل لترى كل ما تم تسجيله لك من بيانات تصفح وتسجيلات صوتية (ويمكنك حذفها أو توقيفها) :

https://myactivity.google.com/myactivity

- الفصل الثامن :

فرص المواطنين لحماية خصوصياتهم.

ويحتوي على عدة نصائح لمستخدمي الإنترنت مثل توزيع معلوماتهم الشخصية والحياتية على أكثر من شركة إنترنت أو إيميلات، ولا يجعلوا كل استخداماتهم تصب في غوغل فقط مما يجعل ماضي وحاضر بل واختيارات مستقبل أحدهم في يد غوغل (مثل أن تولد لك طفلة وفجأة ترى إعلانات عن ملابس البنات لديك) ! فهذا كله حصيلة إتاحة رسائلك - صورك الشخصية - إيميلاتك وغيرها على جوجل. والمثال هنا فقط للتبسيط (فالأمر أكبر من ذلك بدخول الشركات التجارية في تحديد اختياراتنا مع غوغل ونحن نظن أننا كنا أحراراً فيها).

يقول إيريك شميت رئيس غوغل : "إننا نعلم أين أنت الآن، إننا نعلم أين كنت. وإلى حد ما نحن نعلم بماذا تفكر حالياً" !

- الفصل التاسع :

كلمة ختامية - ما العمل ؟

يمكن تلخيص أبرز ما تم ذكره في هذا الفصل حول ترسيخ مفهوم (عدم الاحتكار) وتفعيله عملياً وقضائياً ودستورياً، ومعه ما يحمي أو يمنع من (تمرير) الرسائل والتوجيهات غير المباشرة خاصة للشباب.

- ملاحق :

يختتم الكتاب صفحاته بملحقين هامين، يعرض أولهما أشهر خدمات غوغل التي انتشرت بين الناس اليوم، وأما الآخر فيعرض 174 شركة قامت غوغل إلى أكتوبر 2014م بشرائها والاستحواذ عليها (وهي مذكورة في جدول طويل من عدة صفحات بالتاريخ وتخصص كل منها)، ويمكننا أن نذكر أشهرها كالتالي :

Picasa - (مدونات) Genius Labs - (صور) Android - (هواتف) - Orion (محرك بحث) YouTube - (موقع فيديو) Double Click - (إعلانات) Image America - (تصوير جوي) Aardvark - (بحث اجتماعي) Ruba - (سفر) Fflick - (شبكة اجتماعية) DeepMind - Technologies (ذكاء اصطناعي).

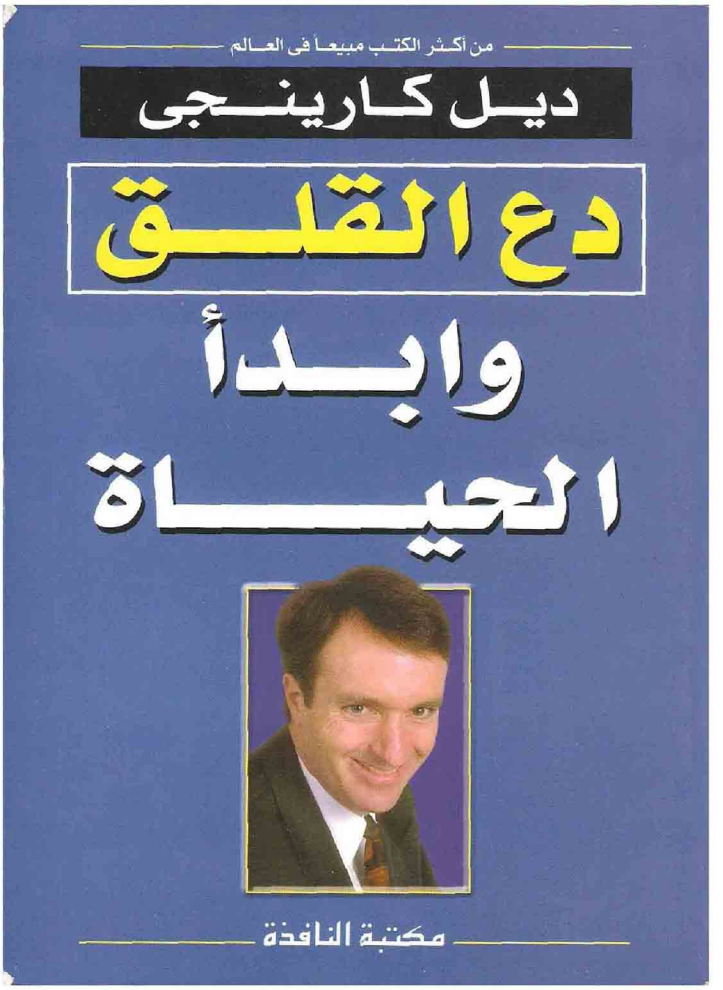

٢- دع القلق وابدأ الحياة

How to Stop Worrying and Start Living

ورغم أن الكتاب صدر في النصف الأول من القرن الماضي (فمؤلفه توفي عام 1955م)، إلا أنه لا زال إلى اليوم يحمل طاقة إيجابية في إظهار مفاتيح بسيطة للتغلب على القلق الزائد عند بعض الناس، أو كما قال عنه المؤلف :

"من الأفضل إخبارك أنك لن تجد في هذا الكتاب شيئاً جديداً، ولكنك ستجد الشيء الكثير مما يتجاهله الناس. وهذا هو المهم.. فلا أنت ولا أنا نحتاج إلى شيء جديد يقال، فإننا نعلم ما يكفي لأن يجعل حياتنا كاملة من جميع نواحيها. فمشكلتنا ليست الجهل, وإنما هي التجاهل. ومهمة هذا الكتاب هي تكرار حقائق قديمة معروفة مع تجسيمها وإبرازها, لتحفزك على تطبيقها".

جدير بالذكر أن الكاتب نفسه مر بمرحلة صعبة في حياته من التي كان يحتاج فيها بالفعل إلى ولادة جديدة.

لقد كان ديل كارنيجي Dale Carnegie يعمل وسيطاً لبيع سيارات النقل بنيويورك في شبابه، ولطالما عانى من الفقر والبؤس في مسكنه وفي سير حياته، كان الألم يعتصر قلبه على ما انتهت إليه ظروفه بعد دراسته في كلية المعلمين وحبه للقراءة والكتابة، إلى أن قرر في أحد الأيام أن يتوقف عن العمل ليحاول أخيراً أن يمارس ما يحب،

وبالفعل عمل في تعليم الطلبة البالغين في المدارس الليلية فن الخطابة لحاجتهم إليه، على أن يتفرغ بالنهار للقراءة والتأليف، وكان يقدم خدماته في البداية بأجر قليل، لكن مع الوقت ومع ظهور الحاجة الحقيقية لهذا النوع من الدراسة والتي خلطها ديل كارنيجي بعلاج مشاكل الرهبة والقلق والخجل لدى الكثير من الطلاب وتعزيز ثقتهم بأنفسهم : ارتفعت أسهمه وقيمة أجره وما يقدمه حتى دخل فيه الكبار والصغار، لقد تعجب كارنيجي من قلة عدد الكتب التي تناولت موضوع القلق Worry مقارنة مثلا بالكتب التي تناولت حياة الديدان Worms !

وخلال تلك الفترة من حياته تجمعت لديه أكبر خبرة ممكنة عن مشاكل القلق سواء لدى الطلاب أو الموظفين والمهندسين وغيرهم، إما في اتخاذ قراراتهم أو في الوقوف أمام جمع من الحضور لإلقاء كلمة أو تجهيزها.

لقد صار كتاب كارنيجي مرجعاً لكل الكتب التي جاءت من بعده على نفس فكرته، حيث تناول كتابه 31 نصيحة من معاملاته الواقعية بالفعل للتغلب على القلق. وسوف نكتفي باستعراض رؤوس أقلام سريعة وموجزة لكل منها نظراً لظهور معناها من عنوانها بما يغني عن الشرح كما يقولون، وهي كالتالي :

حقائق أساسية عن القلق :

- عش في حدود يومك
- مواجهة المشاكل (تقبل الأسوأ)
- حافظ على هدوءك
- تذكر تأثير القلق على صحتك

طرق أساسية لتحليل القلق :

- احصر كل أسباب القلق
- اعطها وزنها ثم اتخذ القرار
- لا تؤخر الفعل بعد القرار
- اكتب الأسئلة التالية وأجب عليها :

ما المشكلة وما أسبابها ؟
ما الحلول الممكنة ؟ ما أفضل الحلول الممكنة ؟

كيف تكسر عادة القلق قبل أن تكسرك ؟

- الانشغال بالعمل يخفف القلق
- لا تتأثر بالأمور التافهة
- استخدم قانون المتوسط الحسابي لتعرف أن ما تخافه بعيد الاحتمال أصلاً
- استفد من الأشياء المفروضة عليك ولا يمكنك تغييرها
- حدد مقداراً معيناً للتأثر بالقلق ولا تتخطاه
- لا تقلق من أحداث الماضي

7 طرق لزراعة رد فعل عقلاني تجلب لك السلام والسعادة :

- حياتك أفكارك، فاملأها بالسلام والشجاعة والصحة والأمل
- لا تنشغل أبداً بالانتقام من أعدائك لأن ذلك سيؤثر عليك
- توقع نكران الجميل من الناس
- انظر لعدد النعم التي لديك، لا لعدد المشاكل
- اعثر على سر تميزك بين الناس وكن نفسك
- حاول الاستفادة من خسارتك
- اصنع السعادة للناس لتسعد

الطريقة المثلى لقهر القلق :

- الصلاة والدعاء

كيف تتجنب القلق من النقد ؟

- تذكر أن الانتقاد الظالم هو غالباً اعتراف خفي بنجاحك
- قم بما عليك بأفضل ما يمكن
- حلل أخطاءك وانتقد نفسك

6 طرق لتجنب الإرهاق والقلق والحفاظ على طاقتك وروحك المعنوية عالية :

- خذ راحة قبل أن تتعب
- تعلم الحصول على فترة راحة في العمل
- حافظ على صحتك ومظهرك بالحصول على راحتك في بيتك
- هناك أربع عادات جيدة لتجنب الإرهاق والتعب وهي : لا تترك على مكتبك إلا العمل الحالي فقط، رتب الأشياء حسب أهميتها، حل المشكلة أولاً قبل اتخاذ القرار، تعلم كيف تتعامل بالنظام والتفويض والإشراف
- تحمس في عملك حتى لا تمل
- لا تقلق بشأن الأرق

كيف أستبق الشعور بالقلق ؟

- عزز موقفك برد الفعل المبكر
- قم بأفضل تحرك في أي ظرف
- لا مكان للخسارة
- تجنب تشتيت الغير لك
- شجع نفسك في كل خطوة

٣- العادات السبع للناس الأكثر فعالية

The 7 Habits of Highly Effective People

وهو من أنسب الكتب بعد استعراضنا السابق لكتاب التغلب على القلق، وقد تم وضع مادته بالنظر في سيرة عدد من أنجح الشخصيات، وهو من تأليف ستيفن كوفي Stephen Covey المتخصص في إدارة الأعمال عام 1988م، والكتاب كان رائداً هو الآخر لكتب جاءت من بعده على نفس نهجه (منها كتب للمؤلف نفسه إكمالاً لفكرة كتابه وكذلك كتب لابنه شين Sean خاصة بالشباب).

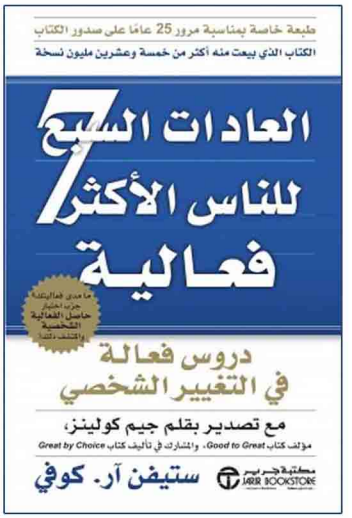

العادة الأولى : كن مبادراً

لا تكن حياتك مجرد ردود أفعال لما حولك، ولكن بادر بتطويع ما حولك لخدمة ما تريد

العادة الثانية : ابدأ والغاية في ذهنك

فذلك سيساعدك على تحقيقها

العادة الثالثة : ابدأ بالأهم قبل المهم

ترتيب أولوياتك يكسبك استثماراً أفضل للوقت والجهد والنتائج

العادة الرابعة : فكر بمبدأ مكسب/ مكسب

أي مشاركة المكسب لمن يمكنك إشراكهم معك في الإنجاز لتضمن أفضل ما عندهم

العادة الخامسة : افهم الناس أولاً قبل أن تطالبهم بفهمك

وذلك من أهم طرق التواصل والترابط مع الغير وتقبلهم لك

العادة السادسة : التآزر

أنت أفضل بالتعاون مع غيرك

العادة السابعة : اشحذ منشارك

جدد مهاراتك ومعارفك باستمرار

إذا كنت ممَّن يملكون القدرة على تلخيص الكتب المفيدة والمميزة : يمكنك مراسلتنا بتلخيصاتك لنشرها باسمك في فقرة : (كتب مختارة)

Aog@Dalailcentre.com

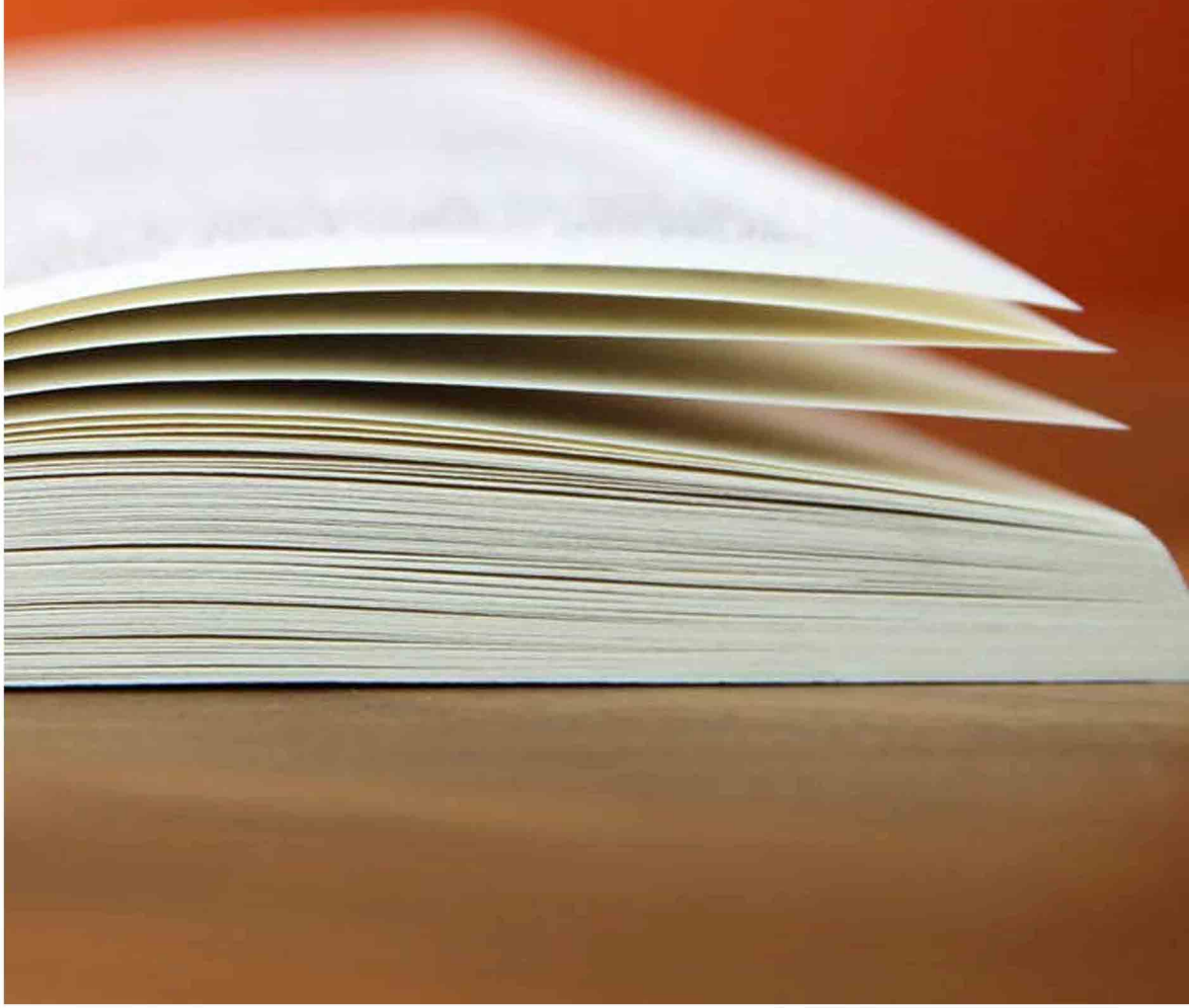

يوتيوبيا

تايسون .. ونيوتن وأمة محمد ﷺ !

سامي أحمد الزين
باحث راصد لحركة الإلحاد الجديد منذ 2008م

من بين آلآف المقاطع التي شاهدتها على موقع اليوتيوب [في مختلف المواضيع] هناك مقطع واحد لـ (نيل ديغراس تايسون) لا يمكن نسيانه.

تايسون بدايةً هو عالم فيزياء فلكية أمريكي ملحد، يصف نفسه بالـلا أدري ويعترض على تسميته بالملحد، وقد اشتكى غير مرة أنه غيّر بنفسه كلمة (ملحد) التي تشير إليه في موقع (ويكيبيديا) الشهير إلى عبارة (لا أدري)، ولكن هناك من أعادها سيرتها الأولى بعد ذلك.

لماذا أسميه ملحداً إذاً ؟ لأنه يصنف نفسه لا أدرياً على أساس أنه لا يؤكد عدم وجود الإله الخالق، بل يصرح بالـلا أدرية في هذا الشأن. صحيح أن ذلك هو الأساس الذي وُضعت لأجله تلك التسمية، ولكن من ينافح عن الآراء الإلحادية بكل قوة ويهاجم كل من يخالفها بأقصى طاقة يجب أن ينال لقب "ملحد" في نظري حتى وإن حاول التملص منه لسبب أو لآخر.

ما (Beyond Belief: Science, Religion, Reason and Survival) بعد الإيمان : العلم، الدين، المنطق والبقاء، كان عنوان "الندوة" التي ألقى فيها تايسون عام 2006م كلمته التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا المقال، وقد تم نشرها بالكامل على اليوتيوب في مقطع طويل، ثم نُشر جزؤها الأخير في مقطع قصير يحمل عنوان "التصميم الغبي" !

ركز تايسون في كلامه يومذاك على أن إيمان علماء الطبيعة بوجود الخالق يعتبر مشكلة تسترعي الانتباه، وقد زعم أن العالم الكبير إسحاق نيوتن - وهو الذي يعتبره تايسون

أعظم عقلية علمية في التاريخ البشري - كان إيمانه الديني قد وقف عقبة في طريق اكتشافاته وبحوثه العلمية. قال أن نيوتن لم يأت على ذكر الخالق حينما تحدث عن حركة وجاذبية الأرض والشمس والقمر وبقية الكواكب كلٌ على حده : لأنه فهم كل ذلك واستوعبه، ولكن حينما أراد أن يفهم كيف يتوازن النظام الشمسي بكامله كان عليه أن يوجد المحصلة النهائية لتأثير جاذبية كل جرم منها على بقية الأجرام، وهو ما لم يتمكن من حسابه ولذلك قال - أي نيوتن - : "إن هذا النظام الفائق الجمال من الشمس والكواكب والمذنبات لا يمكن له الاستمرار إلا بحكمة وقدرة عليم قدير".

ثم قال أن الفرنسي (بيير لابلاس) أتى لاحقاً وأكمل ما لم يكمله نيوتن، لأن لابلاس لم يُدخل الخالق في عمله، وتحسر تايسون على ضياع قرن تقريباً بين اكتشافات نيوتن وأعمال لابلاس. ثم وصل المُحاضِر إلى بيت القصيد : " لذلك فإن ما يقلقني الآن هو حتى وإن كنت بعبقرية نيوتن ؛ فإنك ستصل إلى نقطة تتأمل وتمجد فيها عظمة الرب وتتوقف بذلك اكتشافاتك".

سأشير هنا أولاً إلى التناقض الكامل الذي وقع فيه تايسون حينما قال في البدء أن عقل نيوتن لم يتمكن من استيعاب أمر علمي معقد ولذلك نسب سِرّه إلى الخالق، ثم قوله لاحقاً متحدثاً عن ذات الأمر : "كان يمكن له أن يكتشف ذلك، ولكنه لم يفعل، حيث منعه تدينه" ! ولا يخفى على القارئ الكريم أن سبب جمع تايسون بين النقيضين هنا هو أن الانتقاص من دين نيوتن لا يستقيم إلا بذلك، فحينما يشير تايسون إلى أن نيوتن ذكر اسم الخالق وأثنى على صنعه وقدرته : فإنه يجب أن ينسب ذلك إلى جهل نيوتن وقصر نظره ؛ إذ لو فهم : لما كان ذكر اسم الرب أصلاً. ولكن حينما يحاول إلقاء الملامة على الدين في وقف اكتشافات نيوتن : فإن عليه أن يقلب الآية فينفي جهل نيوتن على الإطلاق، ليعزو إحجامه عن الدخول في تلك المسائل بالكامل إلى تدينه !

> ركز تايسون في كلامه يومذاك على أن إيمان علماء الطبيعة بوجود الخالق يعتبر مشكلة تسترعي الانتباه

يمكن أن نسلّم لتايسون بكل ما قال كما يفعل الملاحدة عادة وكما فعل بعض أولئك الذين علقوا على مقطعيٍّ اليوتيوب، ولكن هناك خيار آخر وهو أن نسأله : لماذا خاض نيوتن في العلوم الطبيعية وغاص في أعماقها إلى درجة أصبح معها في رأيك أنت أعظم عالم طبيعي في التاريخ البشري دون أن يعيقه تدينه كما تزعم ؟ نيوتن لم يقل أنه سيمتنع عن الخوض في ذلك الشأن احتراماً لدينه كي تجزم أنت بأن الدين هو السبب، كل ما في الأمر أنه أثنى على التوازن الدقيق الذي رآه ورصده في الكون، فكيف حكمت بأن دخول نيوتن في ذلك كان سيتعارض مع دينه في الوقت الذي كان خوضه في الأمور الأخرى [التي أبدع فيها] لم يكن فيه أي تعارض ؟

لو أجاب عالم طبيعة مسلم عن مسألة علمية لا يعرفها بعبارة : الله أعلم، ثم كتب بعد سنوات كتاباً يجيب فيه عن تلك المسألة بعد انتهاء أبحاثه فيها، ثم أتى الملحد ليرى الأمر بطريقة : لقد تأخر الاكتشاف العلمي لسنوات بسبب الدين ! ولولا عبارة "الله أعلم" لوصلت البشرية إلى ذلك الاكتشاف بشكل أسرع ! لو حدث ذلك فإن الملحد هنا - مثل تايسون - يتصرف وكأنه مصاب بنوع من الرهاب أو الفوبيا من مجرد ذكر اسم الخالق، هو يخاف من الله ولكنه لا يخاف الله! يخاف من مجرد رؤية تلك الكلمة في كتاب علمي، يخاف من تأثير عالم الطبيعية المؤمن الذي يتجاسر على أن يلمح بوجود شيء خارج الطبيعة، ويخشى من أن يؤدي كل ذلك إلى الجمع بين ما يسعى الملحد بكامل جهده إلى جعلهما نقيضين : العلم والدين.

ليست هذه المشكلة بالأمر اليسير الذي يمكن تجاهله، بل إنها مشكلة كبرى ولها عواقب وخيمة. فلو كنت ملحداً من تلك النوعية فإنك ستكفر بالله عز وجل زاعما أنه "لا توجد ذرة من دليل علمي أو عقلي على وجوده" وحينما يُثبت العلم بأن للكون بداية فإنك ستحتج بأن تلك البداية أتت عن طريق انفجار عشوائي يُمكن أن يقع دون الحاجة إلى مُحدث. وحينما يثبت العلم بأن تلك البداية كانت مضبوطة ومُحكمة إلى

درجة يستحيل عملياً معها أن تكون قد أتت عن طريق مصادفة عمياء ؛ فإنك ستبقى على كفرك أيضاً حتى وإن نفد ما في جعبتك من أعذار وحجج تحافظ بها على هذا الكفر، وسبب ذلك بالطبع هو أن اسم (الله) الذي تخشاه هو ما سيوصلك إليه في نهاية المطاف طريق العلم والعقل الذي ترفض أن تسلكه.

أما بالنسبة للمقطع القصير [التصميم الغبي] فإن اسمه أتى من الفقرة التي اسماها تايسون بذلك والتي استعرض فيها مجموعة من "الملاحظات" التي يعتقد بأنها تدحض فكرة وجود صانع حكيم والتي كان منها الاعتراض الغريب والمتكرر : لا يمكن للحياة أن تزدهر إلا على جزء صغير جداً من الكون ! والسؤال الذي ينبغي أنه نوجهه لمن يعترض على ذلك هو : إذا انعكس الحال وكان الكون بمعظمه يسمح بنشوء الحياة واستمرارها فهل سيكون هذا دليلاً على وجود خالق للكون ؟ أم أن فرضية النشوء العشوائي التي يقول بها الملاحدة ستقوى أكثر لأن البيئات الملائمة سيتضاعف حجمها وتتنوع بشكل هائل وكأن الحياة على الأرض لم تعد مقصودة ؟

الاعتراض الآخر لتايسون هو أن الكون مليء بالأخطار التي تتهدد بقاء الكوكب، ومرة أخرى إن كان الكون آمناً تماماً فهل فهل يقوي ذلك فرضية النشوء والبقاء العشوائي للحياة أم يضعفها ؟ وخاصة أن أمامنا كوكب الأرض محفوظ إلى الآن منذ مليارات السنين وفق تقديراتهم أنفسهم !

ثم ذكر جملة من الاعتراضات (وكأنه ليس لها إجابات في الأديان أو علم الأحياء) منها : رغم ظهور الحياة بسرعة بعد تشكل الأرض ؛ إلا أن الكائنات متعددة الخلايا تأخر ظهورها - لا يستطيع البشر رؤية الإشعاعات والغازات - يهرم الكائن الحي مع التقدم في العمر - يحتاج البشر للأكل باستمرار - هناك غازات سامة تقتل البشر [هنا بدأ الحضور بالضحك مع المحاضر من شدة الاقتناع ربما] - التشوهات الجنينية (حتى هذه لم يتركها رغم أن المتسبب الرئيسي فيها الإنسان بالحرارة والإشعاعات والمواد الكيماوية الضارة مثل التدخين والخمر والأدوية ذات الأعراض الجانبية !) - ثم أخيراً وليس آخراً يعترض تايسون قائلاً : تخيل لو كانت لديك فتحة للتنفس وأخرى للأكل وثالثة للتحدث فإن ذلك سيكون رائعاً أليس كذلك ؟!

قطعاً لا تستحق هذه الاعتراضات أن نضيع عليها أحرف مقال قصير كهذا، ولكن الطريف أن تايسون نفسه قد اعترف في بداية المحاضرة بشكوكه حول ما إذا كانت معرفته بعلم الأحياء (البيولوجيا) كافية لأن يدلي برأيه في هذا الموضوع ؟ لكنه أقنع نفسه في النهاية بأن لديه ما يقوله ثم صرّح لاحقاً باعتراضاته تلك وبنبرة تملؤها السخرية والاستعلاء ! فسبحان الله العظيم الذي قال :

{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } الأعراف 146.

بقيَ سؤال أخير : إن سقطات الملحدين وتناقضاتهم كثيرة، فما الذي يصعب نسيانه في هذا المقطع ؟.. هو ببساطة لا يُنسى لأن تايسون قد أصاب فيه جرحاً غائراً وبأشد الطرق إيلاماً !

كان تايسون قد ذكر أن الرئيس الأمريكي بوش الابن أراد مرة في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن يشير إلى أن الله يقف معه، فحاول أن يقتبس عبارة من كتابهم المقدس المُحرف فإذا به يقول : "إن ربنا هو الرب الذي سمّى النجوم بأسمائها".

بالطبع سخر منه تايسون وتهكم عليه أولاً ثم قال : "إن الحقيقة هي أن ثلثا النجوم التي لديها أسماء تحمل أسماءً عربية". ثم ذكر أن سبب ذلك هو أن الفترة بين عامي 800 و 1100 للميلاد (أي من القرن الثاني إلى الخامس الهجري تقريباً) كانت بغداد عاصمة العلم والثقافة في العالم بحق، وهو الأمر الذي أدى إلى دخول مفردات عربية كثيرة جداً إلى قاموس العلوم الطبيعية، وقد بقيت مستخدمة إلى اليوم، ثم قال مؤكداً : "الأعداد التي نستخدمها ماذا تسمى ؟ تسمى الأعداد العربية (Arabic numerals) توقفوا قليلاً وفكروا في ذلك، علينا في أمريكا أن نتوقف ونفكر في هذا ملياً : لماذا تمت تسميتها بالأعداد العربية ؟".

ثم ذكر أن انتكاسة العلم في العالم الاسلامي جاءت مع حلول

القرن الثاني عشر الميلادي بانتشار ما يظن أنه التأثير السلبي لكتابات أبو حامد الغزالي [وهو تكرار لكلام المحاضر الذي سبقه الفيزيائي الملحد ستيفن وايتبيرج] ثم أخذ بعدها يحذر قومه قائلاً : "لقد انهارت القاعدة الثقافية للحضارة الإسلامية منذ ذلك التاريخ (1100م). ولم تتعافَ حتى اليوم، ولكن... لماذا أذكر لكم كل هذا ؟ لأنني أريد أن أسالكم : ما التأثيرات التي نشهدها نحن في أمريكا اليوم؟ لقد انتهت الفترة التي كان للمسلمين الحق فيها بأن يسموا اكتشافاتهم بأنفسهم ولم تعد بعد ذلك أبداً.. لأن طريقتهم في النظر إلى العالم الطبيعي تغيرت ".

ثم ذكر أن أمة الإسلام التي يزيد عدد أفرادها عن المليار لم يفز منهم بجائزة نوبل في العلوم إلا فرداً أو فردين في مقابل الأعداد الضخمة من اليهود الذين فازوا بتلك الجائزة [ربع مجموع الجوائز تقريباً] على الرغم من أن تعداد اليهود لا يتجاوز الخمسة عشر مليوناً في العالم ككل، إلى أن قال في النهاية : "لو لم ينهار الإسلام في مجالات العلم والثقافة في القرن الحادي عشر لكانت جميع جوائز نوبل من نصيب المسلمين وحدهم، وكون الجوائز التي حصلوا عليها في الواقع ليست قليلة فحسب بل تكاد تكون صفراً هو أمر مقلق بشكل كبير جداً، أنا أتساءل عن ما فقدناه .. عن العبقريات التي كان يمكن أن تظهر في ذلك المجتمع خلال الألف عام التي مضت ولكنها لم تفعل". انتهى.

يمكننا أن نتصدى للهجوم وأن نرد على الافتراءات دون عناء، يمكننا أن نورد اقتباسات من كتاب (المنقذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي يؤكد على أنه لم يحارب الرياضيات ولا المنطق ولا العلوم ولكن : حارب العلماء الذين اتخذوها طريقاً للفلسفات الوثنية الكفرية باسم الدين، يمكننا أن نسخر - نحن كذلك - من فكرة أن تؤثر كتابات عالم واحد في أمة بالمليارات شرقاً وغرباً حتى المختلفين معه في المنهج والتفكير ! يمكننا أن نذكر الأسباب الحقيقية وراء الانهيار بداية من طغيان الدنيا وملذاتها على حضارة المغرب الأندلسي، وبداية من الخيانة وطغيان التتر والمغول وهمجيتهم على حضارة المشرق في بغداد، ولكن..

ماذا عن مُجمل كلام تايسون ؟!

أولاً : أعتقد علينا أن نتساءل عمّا فعلناه كي يجعلنا الله عبرة لغيرنا بهذه الطريقة، وللأسف إذا عرفنا أخطاءنا فيستمر أغلبنا عليها عمداً. ثانياً : حينما يتحسر الملحد على ما خسره العالم جراء انحطاط المسلمين : فإنه يتحدث فقط عن أمور مادية لا تشكل رغم أهميتها عشر معشار ما خسرته البشرية حقيقة على كل الأصعدة (الأخلاق والعدل وأمانة العلم وغيرها). وأخيراً : علماء الإسلام اليوم يملأون بلاد العالم في كل التخصصات، ولو وجدوا في بلادهم كامل الدعم المادي لما تركوها ولأعادوا الريادة في العلوم للمسلمين من جديد، فاللهم اصلح حال أمتنا عاجلاً غير آجل.

المراجع :

- https://www.youtube.com/watch?v=Ti3mtDC2fQo
- https://www.youtube.com/watch?v=4238NN8HMgQ

في آخر كتاب نيوتن : (الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية) يقول : "هذا النظام الأكثر جمالاً من الشمس والكواكب والمذنبات، يمكن أن يستمر فقط بعناية وهيمنة كائن حكيم وقدير. هذا الكائن يحكم كل شيء، ليس كروح للعالم، ولكن كملك لكل شيء. ومن أجل هذه الهيمنة، فإنه يُسمى بالإله الملك "

Isaac Newton, The Principia: Mathematical Principles of Natural Philosophy, London 1687

شخصية العدد

يوسف سمرين

كاتب شاب في المجال الفكري والفلسفي، له نشاط نقدي ملحوظ مع اتساع معرفي كبير ونهم أكبر للقراءة، صدر له كتابياً : (موقف ابن تيمية من نظرية الحادث)، و(تناقضات منهجية) وهو نقد لأطروحة عدنان إبراهيم للدكتوراه، كما صدر له أعمال مسموعة مثل : (سلسلة مدخل إلى الفلسفة).

هم أشخاصٌ قد يعرفهم أغلبنا أو بعضنا أو غير مشهورين، لكن بصماتهم توجب تسليط الضوء عليها وعليهم : مَن هم ؟ وما هي قصة طريقهم الذي سلكوه ؟ لعل فيما سنقرأه معاً مفاتيح القدوة والعبرة لمَن يريد.... نترككم مع الحوار...

أهلاً بك أستاذ يوسف على صفحات مجلة (أوج)، ونود البدء بالسؤال عن أكثر شيء أو أشياء ترى أنها ساهمت في تشكيل فكر يوسف سمرين اليوم ؟

أهلاً بكم جميعاً، أما بالنسبة للسؤال فقد أثر بي بصورة عامة طبيعة تخصصي التي كان فيها جمع بين الدراسة الشرعية والفلسفية، وهذا نادر سواء بين طلبة العلم الشرعيين أو من يدرسون الفلسفة، ومن بين من أثروا بي أيضاً بشكل كبير هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، والذي تعمق في العلوم الشرعية حتى شهد له بهذا القاصي والداني، وفي الفلسفة تعمق فيها إلى درجة كبيرة جداً، جعلته مؤهلاً لمناقش كبار الفلاسفة، ويصوغ ما وصل إليه من تقريرات شرعية بطريقة فلسفية بمهارة شملت الكثير من المباحث، من نظرية المعرفة، إلى الأنطولوجيا، إلى المنطق، إلى الأخلاق وغيرها.

يرى البعض أنك تجيد النقد لبعض الشخصيات حتى يبدو أنك تتعمده، فما هي ضوابط النقد من وجهة نظرك الخاصة ؟

النقد هو التمييز بين الصحيح والخطأ، وقد رفع لواءه علماء الشرع قديماً، من علوم الحديث إلى الأصول وغيرها، والنقد الذي أسلكه ينصب على الأفكار، ومن وظائف الفلسفة أيضاً النقد، كان ابن تيمية قد كتب أهم كتبه من هذا الإطار، تجده ينقد كتاباً كما فعل مع ابن المطهر في منهاج السنة، كذلك في بيان تلبيس الجهمية يرد على الرازي في أساس التقديس، والنقد مسألة صحية، وإذا كان الفن لا يستغني عن نقاد، فكيف بالأفكار والمناهج والأطروحات التي يمكن أن تؤثر في أمة فتعلو بها أو تتحطم بها ؟ إن النقد بشكل عام له رسالة .. أن لا يكون المتلقي كائناً سلبياً أمام ما يسمعه أو يقرأه، بل كائناً حياً متفاعلاً مع النص المسموع أو المكتوب، يُقر الصحيح، ويرد الخاطئ، وأي عمل نقدي يمكن أن يتحول إلى موضوع ينصب عليه النقد.

وضوابط النقد وآلياته واسعة جداً، بل قد تكون أوسع من العلم المقصود نفسه، ففي علم الحديث مثلاً، كثير من نقاد الحديث لا يكتفون ببيان كذب

حديث ما حتى يبينون أصله، وكيف تدرج إلى أن صار بزعم بعضهم حديثاً، فهنا لزم زيادة على معرفة علم الحديث وهي الاطلاع الواسع على الأقوال والتاريخ ونحو ذلك، حتى يبين أصل الحديث المنحول، ونحو هذا.

ما صفات القدوة الصالحة التي ترشحها للشاب المسلم أو للمسلم عموماً ؟
وما هي حدود اتباع تلك القدوة ؟

في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه :

"عليكم بمن قد مات، فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة"، فأول قدوات صالحة هي سلف الأمة الصالح، ومن سار على دربهم من علماء وفقهاء وصالحين، ومع ذلك لا يفترض أن يكون القدوة مانعاً من الاستزادة من المعارف والعلوم التي غابت عن كثير منهم، مثل العلوم الدنيوية المتنوعة، فاقتدائك بشخص لا يعني أن تكون مقلداً له في كل شيء، بل تتبعه في الخير، وتحاول الاستزادة من كل خير ومعرفة.

يعيش أغلب شباب المسلمين اليوم في تيه معرفي ..
لا نقصد العلوم التي يتم دراستها في المعاهد والجامعات وإنما مفهوم المعرفة نفسه كأدوات ترتقي بفكر الشخص وتمكنه من الحكم على الأشياء واكتساب النافع وترك الضار، فإذا كنت توافق على هذا الكلام : فما هي نصيحتك للشباب ؟

كان شوبنهاور يرى أن التجديد لا يكون من داخل أسوار الجامعات، حتى إن نيتشه وهو من تلاميذه المعجبين به، يشرح هذا الأمر بقوله : "إن الطلاب يخشون معلميهم، والمعلمون يخشون الرأي العام"، بمعنى آخر : إن المدارس والجامعات تكون محافظة إلى حد ما على الوضع القائم، وكثير من الطلاب يهتم بأن يحصل على شهادة، لكننا نتحدث عن أمر غير ذلك، وهو القدرة على التفكير نفسها، الحكمة، فكم من حاصل على شهادة عليا يفتقد القدرة على التفكير في أبسط الأمور، وتتجلى أخطائه عندما يتحدث في شأن عام، أو خاص أحياناً، ومن هنا تتحول المعرفة إلى ضرورة حيوية تمس الإنسان كإنسان، بقطع النظر عن المردود الربحي المادي، ولذا فإن علوماً مثل العلوم الشرعية عندما تتحول للإنسان كمنطق لموازنته الأمور سيكون مردودها أكبر من التعامل معها كمواد جامعية.

يهتم يوسف سمرين بانتقاد عدد من أخطاء المسلمين اليوم، بل وأخطاء من ينتسبون إلى الدعوة أحياناً - مع تحري قيام ذلك على أساس شرعي علمي سليم من القرآن والسنة والسلف الصالح - فهل يمكنك تلخيص أكثر أوجه تلك الأخطاء التي تهديها للأمة وللدعاة ؟

من الأخطاء الخطيرة الملاحظ تكرارها، غياب المنهج، في إحدى المرات وقف أحد الوعاظ قائلاً : "لاحظوا (ربك فكبر) لو قرأتموها من الشمال إلى اليمين تظل هي هي" ! ففرح الناس، ولكن تخيل كم مرة ستخطئ معهم هذه الطريقة ؟ ثم تخيل كيف سيضيع معنى القرآن وهم يحاولون قلب الآيات !

هنا غياب المنهج، وهو خطير، فقد تنجح معك لفتة مرة، ولكنها تهدم النصوص تماماً، يأتي رجل يؤول حديثاً فيلوي عنق الكلمات ومعانيها في حواره مع آخر، ثم يفرح أنه انتصر عليه في الجدال، ولكنه لو التزم ما قاله إلى آخر نتائجه، سيكون كارثياً، حالياً هذا مشاهد مع تأويلات تجعل من الإسلام متقارباً مع التطور الداروينى مثلاً.

لذا لا يمكن التنكر لمنهج صحيح في فهم النصوص، وهو الذي حرص عليه أهل الأصول، فالمنهج مهم للغاية، لأنه لا يتوقف في التعامل مع نص في مسألة، بل يتعامل مع النصوص بمجملها، وبالتالي تتضح لوازم الأقوال فيها.

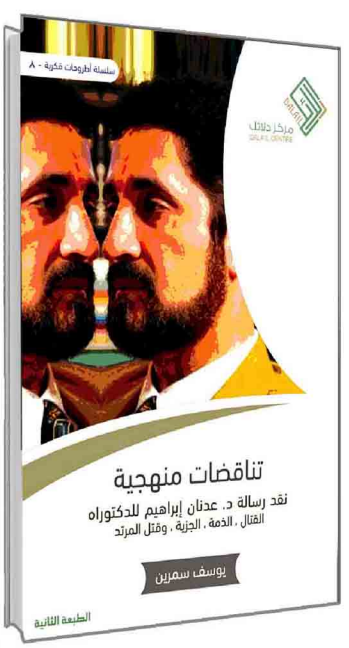

ما أفضل الطرق في نظرك لمخاطبة الشباب والناشئة بلغة تناسب العصر الذي يعيشونه اليوم ؛ في خضم تغير الكثير من المفاهيم في التربية والتلقين وحتى طرق الشرح والإقبال أو الإحجام عن القراءة وخصوصا القراءات المطولة ؟

إن الاستهانة بالشباب، وتصغير قدراتهم، والتلقين : كلها معوقات أمام التعامل مع الشباب، لذلك نجد باولو فريري مثلاً يتحدث عن التفاعل بين الأستاذ والطالب في طرق التعليم الحديث، فكيف بما هو خارج الأطر النظامية ؟ الشباب يجب مخاطبته بما ينمي قدراته العقلية، وعدم اللعب على وتيرة العاطفة فحسب، فهي مشتعلة فيهم بالفعل، بل التركيز على الجانب العقلي أساسي في تنمية هؤلاء الشباب، مما سينعكس على مجتمعاتهم.

ما رأيك في ظاهرة انتشار الإلحاد بين الشباب ؟ هل تراها مرحلة مؤقتة في تاريخ الأمة تمهد لشيء أفضل ؟ أم تراها نذير سوء ؟ وما هي أكبر أسبابها في رأيك ؟

لا استطيع أن أقول إن الإلحاد منتشر بين الشباب، لكن يوجد شيء منه كردة فعل سياسية واجتماعية وفكرية أحياناً، يجب علينا أن لا نتعامل بردات الفعل أمام هذا وأمثاله، بل التركيز على جانب المعرفة، ودراسة هذه الظاهرة وتوقيتها وظروفها.

يجب نقد المسببات، لا شك أن بعض الخطاب الوعظي والسياسي أثر في هؤلاء وصنع فيهم هذه الحال، لدرجة أنك تجد أن بعض من صار ملحداً كان له ميول دينية فترة معينة، لكنه تلقى خطاباً بعيداً عن العقل، أو أخذ بمسائل قد يكون الراجح فقهياً غير ما تعصب له سابقاً.

مثلاً أغلب الظاهرة الإلحادية اليوم تتعلق بالتطور الداروينى، وتحديداً داروينية جديدة تابعة لدوكنز، لا تجد فيها كبير فلسفة، إنها على وزن من ينتقل من حالة مأزومة، إلى دوغما علموية إن صح التعبير. فيفترض علينا دراسة تلك الحالات لفهمها قبل الرد عليها، ولا يكون هذا بطرق تقليدية من التعنيف والهجر ونحو ذلك، بل يجب حوراهم بالتي هي أحسن.

يقول المتنبي : "وإذا كانت النفوس كباراً *** تعبت في مرادها الأجسام" ولعل أكثر مَن يستشعر هذا البيت هم أصحاب الهمم العالية في الكتابة والبحث، فهل لدى يوسف سمرين أهدافاً من هذا النوع يرجو من الله تعالى يوماً أن يتمها ؟

عملي ينصب في جوانب الفلسفة التي تتفق مع الرؤية الشرعية، وهدفي الذي أصبو إليه هو تصوير مدرسة ابن تيمية فلسفياً كما هي دون تلفيق، حيث أرى أهمية مد هذه المدرسة إلى الفروع المستحدثة في العلوم والمعارف، وإظهار حلولها في المشاكل العصرية.

ما رؤيتك للمجال الفكري والثقافي الإسلامي اليوم، هل ترى أفراده على كفاءة مناسبة لحاجات الأمة ؟ أم تنقصهم بعض الكفاءات الغائبة ؟ أم ينقصهم العدد ؟ وما هي نصيحتك للنهوض بهذا المجال ؟

نصيحتي أن لا يكرروا نفس النماذج التي تم تقديمها، بل البناء على جهود من سبق، وتغطية النقص في الجوانب التي لا يكاد يوجد فيها ذاك الجهد، ومن تلك الثغور التي تحتاج إلى مرابطين عليها هي الجانب الفكري والمباحث الفلسفية، ولا أخفي أنني ألحظ كثيراً من الجهود في هذه الأبواب تخالف - دون وعي - عند القائمين عليها ، ما يقررونه من معاني النصوص الشرعية، لكنهم لا يفطنون أن ما يقررونه في هذه المباحث مرتبط بشكل أساسي بمباحث أخرى، على أي حال الجانب الفلسفي يحتاج إلى جهود جبارة لمد ما قرره ابن تيمية في فروع الفلسفة الحديثة، هذا بعد توضيح الأسس التي تقوم عليها فلسفته.

وأخيراً : هل هناك مشاريع قريبة للظهور على الساحة ليوسف سمرين ؟

نعم إن شاء الله، العمل حالياً على كتاب (نظرية ابن تيمية في المعرفة)، وهو جهد كبير يستنزف وقتاً وعملاً، أتمنى أن يخرج إلى النور عما قريب.

فَعَلِّمْ ما استطعْتَ لعلَّ جيلاً
سيأتي يُحدثُ العَجبَ العُجابا
ولا تُرهِقْ شبابَ الحيِّ يأساً
فإن اليأسَ يَختـرِمُ الشبابا

أحمد شوقي رحمه الله

كتب في البناء المعرفي

أحمد مقرم النهدي
مهتم بالبناء المعرفي ..

من كمال عقل الإنسان ورجاحته تطلعه إلى المعرفة والاطلاع واكتساب المزيد من الخبرات والمهارات المُعينة له على ممارسة حياته وتنمية فكره، والإنسان مخلوق فُطِر على الجهل كما قال تعالى في محكم التنزيل :

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } النحل 78، وبالتأمل في هذه الآية ندرك أن جهالة الإنسان منذ ولادته ترفعها أدوات العلم والمعرفة التي أودعها فيه الله سبحانه والمذكورة في هذه الآية، وذلك ليُحسن استخدامها واستثمارها في إصلاح نفسه وبيئته وإعمار ما حوله وفق النهاية السليمة التي لا تستنكرها فطر وعقول، والمبنيّة على بدايات ومقدمات سليمة في أخذ المعلومة والتلقي، وتتمايز هذه النهايات بتمايز طرق ووسائل البناء المعرفي في استثمار المعارف العقلية المختزنة في الإنسان.

وهذه المختزنات في العقول على نوعين باعتبار وسائل تنميتها : فنوع يسير عليه أهل كل عصر بما حباهم الله تعالى من أدوات مشتركة فيما بينهم ومتاحة في عصرهم، ونوع يستفيد منه أهل العصور اللاحقة وينظمون به معطيات العصور السابقة، وبناء على ذلك فإن عصرنا الآن يتميز بانطلاقة معرفية واسعة في الأدوات والوسائل المتنوعة والتي صارت للأسف على حساب المكتسبات والمختزنات، حيث لم يعد يُراعي الإنسان ما الذي يدخل عقله وينمي معرفته مما يضره أو يجهله ؛ وذلك إما من كثرة الموجود ووفرته اليوم بشتى الوسائل، أو من عدم احتياجه إليه في وقت راهن أو لاحق، فيضطر المرء جاهلاً أو متجاهلاً إلى تجاوز أصول البناء المعرفي التي تمكنه من المشاركة في المجالات المعرفية البشرية وهو مكتمل الأركان والركائز ؛ بدلاً من أن يناقش وينافح ويستدل ويقرر ويحكم معتمداً على قراءات مجتزأة وتغريدات من هنا وهناك، وحرص على رسائل مطولة تأتيه عبر الواتساب أو التيليجرام جعلت الواحد منا يغرق في بحر العقل الجمعي الإلكتروني في هذا العصر، في حين الحقيقة الصادمة أنه لا يوجد برنامج ذاتي مُحكم مُنظم سار

عليه في بدايات مشواره المعرفي، ويسير عليه في بنائه المعرفي الدوريّ ؛ سوى تتبعِهِ لهذا العالم الافتراضي المخادع والمخدر.

من هذا الجانب ومن هذه الزاوية الحرجة جاء مشروع البناء المعرفي، بل إعادة البناء المعرفي الذي يمكن أن يكون مصادماً لما نشأ عليه الواحد منا أو اعتاد عليه في طريقة بنائه لمعرفته.

ورغم أنه للبناء المعرفي روافد شتى ومصادر متنوعة كما سبق، إلا أن الكتب بلا شك رافد مهم من تلك الروافد التي تبثها الحياة من هنا وهناك، والتي قد تسبب الحيرة المعرفية لكثير من الناس لا سيما الشباب الذين هم الأكثر تطلعاً لاكتشاف المجهول لزيادة خبراتهم.

وقبل الحديث عن الكتب أود الإشارة إلى نقاط تدعم وتوضح الكلام السالف الذكر:

- ذكر الطاهر بن عاشور رحمه الله في مقدمات تفسيره التحرير والتنوير مقدمة جليلة ونافعة عن إعجاز القرآن قسم فيها العلم قسمين فقال : "العلم نوعان : علم اصطلاحي وعلم حقيقي ؛ فأما الاصطلاحي فهو ما تواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور، ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة. وأما العلم الحقيقي فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلاً وآجلاً (وهو ما يدعو إليه مقالنا هذا) وكلا العلمين كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه، وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب ؛ لأن أغراض شعرهم كانت لا تعدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلفة، ولا تحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التي هي أغراض القرآن". [1]

- مهما اختلفت أهداف البناء المعرفي عند كل إنسان فهي في النهاية تصب في صالح تأسيس مهارات وخبرات في عقله ووجدانه حتى تثمر ما يسمى (المَلَكة).

والمقصود معالجته هنا أن عموم الناس والطلبة اتجهوا إلى تنمية وتطوير شيء لم يُحكَم بعدُ تأسيسُه ولم يتقوَّ بنيانُه في مرحلة الاكتساب والإدخال إلى الخزينة الذهنية ؛ ويُكتشف هذا الأمر بالاحتكاك العلمي الذي يُظهر نقص هذه المهارات بجانب التجاوز إلى قراءة كتب مرهقة للعقل والذهن، وبالتالي تكون النتيجة السليمة لهذا المعطى - الذي هو اكتشاف الخلل - إعادة البناء المعرفي في هذه المهارة، تماماً مثل مهارة التحدث أو المناقشة ونتائج النظر والاستدلال المبني على تحري الحقيقة، لا التأثر ببيئة معينة أو أدلجة نشأ الواحد عليها، وهذه هي فكرة البناء المعرفي الذي ندعو إليه، والذي يدعو إليه كثير من الخبراء والمهتمين.

- هذه الكتب التي سنعرضها المقصود منها موضوعها لا ذاتها، وما تم اختياره هو رؤية شخصية وجمع من الكاتب حاول ألا يتعمق فيه قدر الإمكان ؛ فكل إنسان يمكن أن يبني معرفته أو يمكن أن يكون قد بنى معرفته بقراءة كتب مشابهة لذلك، فلا يمكن لأحد أن يجزم أن هذا الكتاب هو الأصل، بل هو نتيجة تتبع واستقراء شخصي. أيضاً ذكر دار النشر أو الإصدار هو من باب الدلالة فقط لمَن يريد وإلا : فالكتاب الواحد غالباً ما تنشره أكثر من جهة أو دار أو مركز.

- نتيجة دراسة (المعطيات) سواء كانت كتباً أو مؤتمراً أو ندوة فكرية أو دورة تدريبية أو مجالسة خبراء ومختصين أو حتى خطبة جمعة وقراءة مقالة وتغريدة : لا تكون إلا وفق المرور المحْكَم على محتواها بهذه الأسئلة الأربعة :

ما [الفحوى] ؟

ما [الأهمية] ؟

ما [التطبيقات] ؟

ما [الافتراضات] ؟

فالسؤال عن (الفحوى) يوضح الفكرة العامة والتمهيدية التي تهيء العقل لكي يركز مع الموضوع المطروح وصورته وحقيقته وماهيته، والسؤال عن (الأهمية) يوضح مبررات وحاجة المتلقي إلى الكتاب مما يمس حاجته وواقعه العلمي أو الاجتماعي، والسؤال عن (التطبيقات) هو أساس بناء المعرفة من حيث نتائجها

المفترض على العقل أن يقوم به بناء على معطيات هذا الكتاب أو ذاك. فهي التي ستمكّن الإنسان من الإبداع في الموضوع المُعطى أو المطروح بعد التمرس فيه.

فالمعرفة بطبيعة الحال يسبقها جهل وعدم وكما قيل : "المعرفة التي ما فيها جهل هي المعرفة التي ما فيها معرفة".

ومن ذلك مواضيع الفنون والعلوم كما قال ابن النجار الفتوحي - رحمه الله - وهو يمهد للحديث عن علم أصول الفقه : "ولا بد لمن طلب علماً أن يتصوره بوجه ما ويعرف غايته ومادته" ؛ وشرَحَ هذه القاعدة بقوله : "وأصل هذه القاعدة أن كل معدوم يتوقف وجوده على أربع علل، (صورية) وهي التي تقوم بها صورته" إلى أن قال : "و(غائية) وهي الباعثة على إيجاده وهي الأولى في الفكر وإن كانت آخراً في الوجود النهائي، ولهذا يقال مبدأ العلم منتهى العمل، و(ماديّة) : وهي التي تستمد منها المركبات أو ما في حكمها، و(فاعلية) : وهي المؤثرة في إيجاد ذلك".[2]

- مقدمة الكتاب غالباً ما تعين على استيعاب ما تقدم ؛ فيمكن لقارئ أي كتاب إذا ركز فيها وفق ما تم ذكره أن يكون عنده إلمام شامل وأصول مهمة عن موضوعه، وهو ما دعا إليه الأولون والأقدمون ووضعوا له المتون العلمية في طلب العلم الشرعي مثلاً والمنظومات الشعرية، وكما قيل : "صاحب الكتاب يغلب صاحب الكتب". فهو كلما كرر قراءته لن يكون مقتصراً فقط على ما فيه، بل سيزيده ويثريه وقد يضيف عليه فائدة مشابهة، وهنا يقوى البناء المعرفي في الموضوع نفسه الذي تحدث عنه الكتاب.

وبالعودة إلى هدفنا الأول عن ترشيح كتب في البناء المعرفي فننوه إلى أن هذا التركيب حتى يكون متكاملاً ووافياً يقتضي أن يكون مرتكزاً على ثلاثة أركان نذكرها مع كتبها :

أولاً : معرفة الإنسان وتركيبته وأدوات التعلم المودعة فيه، ونرشح لكم فيه الكتب التالية :

1- علم النفس المعرفي : وهو صادر عن دار خوارزم العلمية من تأليف (ليلى جابر آل غالب وماجدة حسين محمود ومصطفى محمود الديب) وهو من أسهلها على المبتديء في هذا المجال، وعلم النفس المعرفي قد تطور كثيراً في العقود الأخيرة، ويقوم على توضيح كيفية عمل الأجهزة العصبية في الإنسان من الإدراك والانتباه والذاكرة والخيال، وكيف يستخدمها وغيرها في مهارات التفكير والتحليل التي هي نتيجتها.

2- علم النفس التربوي : من تأليف د. عبدالمجيد نشواتي، وهو كتاب ضخم ومكثف صادر عن مؤسسة الرسالة، ولقد تناول مواضيع هذا العلم بشكل واف إلى حد كبير، ويمكن أن يكون تنزيلاً لمواد علم النفس المعرفي على الواقع من حيث التعامل مع المثيرات في الحياة والتي أسميناها منذ قليل بـ (المعطيات) وكيفية الاستجابة لها، وكذلك القيم والمفاهيم، ومعرفة الذكاء اللغوي واللفظي، وغيرها من المواضيع الهامة.

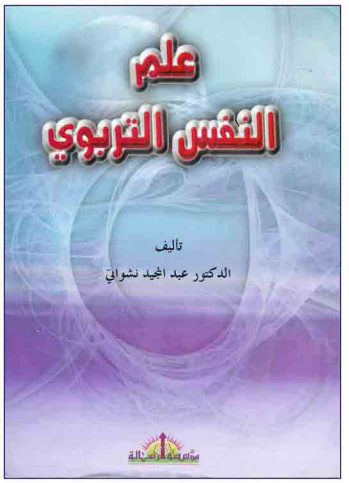

3- تأسيس عقلية الطفل : من تأليف د. عبدالكريم بكار ونشر دار وجوه، ويركز هذا الكتاب على ما ينبغي للإنسان أن يتعلمه ويبني معرفته عليه سواء قرأه لطفله - وهو المقصود - أو حتى أعاد قراءته لذاته وحياته، وتكوين البيئة التربوية المناسبة للإبداع وتوعية الطفل بذاته وتكوين مفاهيمه، كما يتميز الكتاب بوجود مشاريع معرفية وفكرية يمكن تنزيلها على أرض الواقع تربوياً ومفاهيمياً.

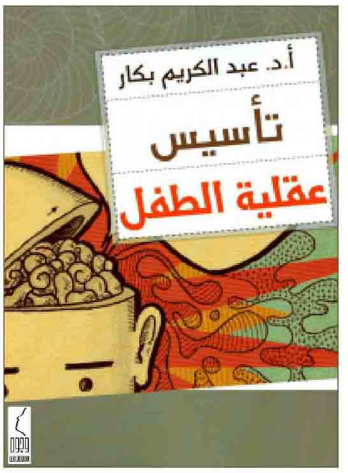

وهذه الكتب الثلاثة فيها تكوين خارطة مفيدة عن الإنسان وأدوات التعلم والاكتشاف الذاتي، كما أن كتب السير الذاتية هي أشبه ما تكون بالشرح

والتطبيقات الواقعية، حيث فيها معطيات كثيرة يمكن أن يتم الاستنباط والإفادة منها والربط فيما بينها.[3]

ثانياً : فهم الحياة وطبيعتها وكيفية ممارستها والتعايش معها.

وهذا الركن متمم للسابق بل هو نتاج الاهتمام بالسابق، فالإنسان يبني معرفته عن ذاته من أجل أن يمارسها في حياته التي سيتعرض فيها لمواقف كثيرة ومطردة في يومه وليلته، كما أنه سيقابل أنماطاً من البشر كلٌ له سجيته وشمائله وعاداته وأخلاقه، وسيواجه أيضاً مصائر متعددة وتحولات معيشية تربك الذهن وقد تغير المفاهيم والآراء، وهو في خضم كل ذلك يحتاج إلى بناء معرفي (سلوكي) يقتضي فهم هذه الحياة، ويصوغ له قلادة تحيط بالعنق، ومما نرشحه من كتب في ذلك :

4- مداواة النفوس في الأخلاق والسير : وهو لأبي محمد علي بن حزم - رحمه الله - وقد تولت إعادة نشره دور كثيرة، ويُمثل الكتاب رغم قدمه خبرات معرفية عميقة في هذا الشأن، فالنفوس هي التي تتحكم في صاحبها وتصرفاته، ويعرض المؤلف مداواة لها مع الكثير مما يمكن أن يمر بها من معطيات الحياة في الأخلاق المتفاوتة والنوايا المتغيرة والعلوم والمعارف والصفات الحميدة والذميمة وتعريفاتها، وكيف ينال الإنسان درجة ومكانة في الحياة استحقها أو لا يستحقها، وغير ذلك من المعارف الناتجة من تجربة كبيرة لرجل عاش تقلبات نفسية وتاريخية، وكانت نبرته فيها نبرة الحاسم الذي يقول خذوا عني وليس بعد هذا، ولا تتجاوزوا كلامي حتى تعيشوا بهناء وصفاء.

5- جدد حياتك : للشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - وقد تولت طباعته دور نشر كثيرة كذلك، وهو في نمطه قريب من كتاب ابن حزم إلا أنه بصياغة معاصرة وأدبية شيقة، مع نقد وتحليل لمواقف الناس، وهو في الأصل كتاب غربي للمؤلف ديل كارنيجي بعنوان : (دع القلق وابدأ الحياة)، قرأه المؤلف وقال : "عزمت فوراً أن أرده إلى أصوله الإسلامية"، ثم جمّله بآراء شخصية قيمة لا ينبغي إغفالها [4] ، وخلاصة الكتاب السابق وضعها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في مؤلف صغير شيق عنوانه : (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة).

6- هي هكذا : كيف نفهم الأشياء من حولنا ؟ وهو الكتاب الثاني معنا من تأليف د. عبدالكريم بكار، وينصب في مادته على كيفية فهم الحياة والوجود، وكيفية بناء التصورات عن كل معطى حولنا وسماها السُنن الإلهية، حيث ناقش فيها 60 سُنّةً في جزءين... مثل المال والحب والرغبات والتكيف والتأقلم والخواطر وتأثيرها علينا وخلاف ذلك من الأمور التي قد لا يطرأ على بال الواحد منا التفكير فيها إلا إذا واجهها، فبهذا الكتاب يمكن أن نبدأ بمحاولة التعرف إليها ووضعها في إطارها الصحيح، وعنوان الكتاب فيه إيحاء لطيف عن أن الأشياء لها طبيعة فلا حاجة لمحاولة تخطي طبيعتها، بل المعرفة السليمة تقتضي أن نتعامل معها وفق طبيعتها.

ثالثاً : مداخل العلوم والثقافات والمهارات.

ويدخل في هذا الركن من أركان البناء المعرفي كتب مهمة أيضاً هي من مقتضيات المعرفة ومتطلباتها، مع التنويه إلى أنه لا يُستغنى بها عن الممارسة العملية بحال، بل قراءتها هي أول طريق الممارسة، وبدونها لا تكون المعرفة كاملة ومستوفية البناء، فلا بد حتماً من ثقافة علمية تساعد على رسم صورة ملمة لواقع التعامل مع المعطيات والبيانات وتنوعها ومبادئ كتابة البحث العلمي وأصول القراءة وضبط فوائدها.

ونقترح في ذلك كتباً مثل :

7- ضوابط المعرفة : وأصول الاستدلال والمناظرة، للدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. من إصدارات دار القلم، وهو كتاب رياضي منطقي ذهني، قام مؤلفه بتأصيل المُدركات الذهنية والحسية وما هو كلي أو جزئي، وتكلم أيضاً عن دلالات الألفاظ على المعاني وقام بشرحها شرحاً رائقاً وبديعاً، حيث يحث الكتاب العقل على الإبداع وفق ضوابط المعرفة وحدودها، ففيه باب عن طرق التوصل إلى المعرفة، وبالتالي تتم عملية ضبط النقاشات والمناظرات والاستدلالات بما

يفتح الله به على العقول والمدارك.

9- مهارات في التدريب اللغوي : للدكتور نوح بن يحيى الشهري، من إصدارات مركز النشر العلمي، وهو كتاب تدريبي ممتع وشيق لا سيما لطلاب المرحلة الثانوية وبداية المرحلة الجامعية، حيث يثري المؤلف فيه الحصيلة اللغوية والشعرية وأيضاً يبني القدرات والمهارات الكتابية والتحريرية، لأنه من المؤلم أن يقال إن هذه المهارات اللغوية هي آفة التعلم عند كثير من الطلبة والطالبات، فمهارات كهذه تستحق البناء المعرفي وبذل الوقت والجهد لها حتى تصل إلى مرحلة المَلكة والمكنة، إذ أنها ستلازم الطالب في مشواره العلمي والمعرفي طيلة حياته.

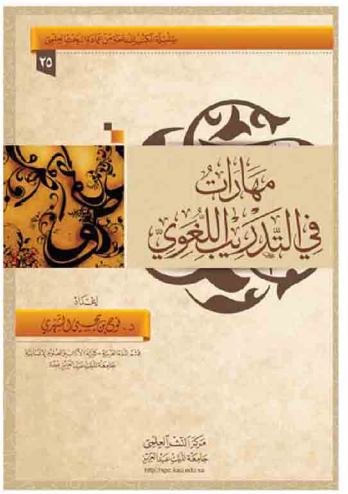

10- كتيب حواري بعنوان : ماذا أقرأ، لماذا أقرأ، كيف أقرأ ؟ للدكتور عبد الكريم بكار وعلاء الدين آل رشي، وهو من إصدار مركز الناقد العربي، وقد أجاب الكتيب عن هذه الأسئلة الفضفاضة والواسعة عن القراءة بشكل استيعابي جامع يسمح للإنسان أن يتطور بنفسه ويبحث عن الإجابة وفق المعطيات المذكورة، وليس مجرد تحديد كتب معينة في مجالات محددة، فمثل هذا في نظري هو من أفضل ما يُوجه إليه المتطلعون للقراءة وبناء الثقافة.

11- أبجد العلوم : من تأليف صديق بن حسن القنّوجي، وهو كتاب عرض العلوم وتواريخها ورحلتها ومواضيعها التي تدور حولها، وهو مجلد ضخم ثري مفيد للاطلاع الشامل على كل العلوم الذهنية والنفسية والسلوكية والشرعية وغيرها؛ وبالتالي يختار الواحد ما يلائم تخصصه وميوله، كما أنه يمكن أن يكون مُذكرة يكوِّن منها القارئ فكرةً مُحررةً ومكتوبةً عن كل علم حسب المقدمات العشرة لمعرفة الفنون ؛ وهي الحد والموضوع والثمرة والواضع وغيرها، كما تدعم فكرة هذا الكتاب كتب أخرى مثل (مصباح السعادة) لطاش كبرى زاده، وجزء مشهور من مقدمة (ابن خلدون) في أبواب العلوم.

12- مهارات التعلم الذاتي : هذا العنوان أُلِّفت فيه كتبٌ كثيرة، ومن مشكلات المعرفة المؤدية إلى اختلالها : الاقتصار على التعلم الحضوري في المدارس والجامعات والدورات التدريبية في وجود معلم ومدرب يشرح ويُسهل، دون التمكن من مهارات التعلم الذاتي أو التدريب الشخصي التي هي قيمة مهمة من أهم قيم البناء المعرفي، وهي ملتصقة بالمتعلم أكثر من مجرد الحضور ومباشرة المُدرب والمعلم، وهناك كتاب من إعداد الجامعة العربية المفتوحة يتميز بحسن الترتيب لمواضيع هذا الفن وتدعيمها بالأمثلة والتطبيقات المهمة في التحرير وكتابة التقارير العلمية والتفكير الناقد وغيرها، أما الكتب التي نرشحها في ذلك :

13- الإبداع العلمي : للدكتور أحمد بن علي القرني، من إصدارات دار عالم الفوائد، وهو دراسة تأصيلية تكشف أسس التفوق العلمي، والكتاب مبدع في إثرائه المتعلم شغفاً وحرصاً للمزيد، فهو يجمع بين مبادئ البناء المعرفي ويزيد عليها أسساً يتخطى بها المتعلم المراحل السابقة ؛ ليكون عنده مَلكات تقوي تعلمَه وتُمتِّن معارفه وتصبح كقوة قريبة في ذهنه يستدعيها متى شاء ليخوض بعدها غمار التفوق والتبحر والاكتشاف.

14- نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية : للدكتور أحمد محمد حسين الدغشي، من إصدار دار الفكر، وينطلق المؤلف من كون القرآن الكريم كتاب معرفة بما فيه من معطيات عقلية ودلائل وحُجج وبراهين، حيث تتسم المعرفة القرآنية بالشمول والتكامل والخلود والإطلاقية، ويقدم الكتاب كل ذلك بصورة معرفية سلوكية تجعل المؤمن الباحث عن العمل يتحلى بتطبيق هدايات القرآن وآدابه.

وقبل نهاية هذا التجوال والتطواف حول كتب البناء المعرفي أختم بإشارات كما بدأت :

- ما ذكر فيما سبق عن البناء المعرفي الإنساني : يشترك فيه البشر عموماً مهما اختلفت دياناتهم وأفكارهم، فالله تعالى خلق النفوس والعقول وحد لها حدوداً مشتركة لا تتجاوزها في ممارسة معطيات الحياة، وبطبيعة الحال فالمؤمنون بما أوحى الله إليهم يضبطون العقل والمعرفة وفق مقتضيات الشرع ومسلماته.

- إن تحديات البناء المعرفي تكمن في التطبيقات والتدريبات الشخصية والتفاعل الذاتي مع المعطيات من خلال ممارسة عمليات ضبطها وتمكينها التي أشرت إليها في مقالي في أكثر من موضع، وفي الحقيقة أنه لا يتميز متعلم منا إلا بها تصوراً وضبطاً وتحريراً وإتقاناً وترتيباً وذلك وفق المسارات السابقة، وأما القراءة المُشتتة والتوسع فيها وتتبع الملتقيات والمعارض والتغريدات بغير خطة معرفية محددة : هو العقبة الكبرى في طريق البناء المعرفي المنشود.[5]

المراجع :

[1] انظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور. جزء 1 ص 127.

[2] انظر شرح الكوكب المنير لمحمد الفتوحي (ابن النجار) تحقيق محمد الزحيلي ونزيه حماد جزء 1 ص 36 بتصرف.

[3] كتب السيرة الذاتية فيها معالم وإضاءات مفيدة جداً في البناء المعرفي كما لا يخفى، وقد تم الاكتفاء هنا بالإشارة فقط إليها.

[4] مما يجدر التنويه إليه أنه في هذا الكتاب استشهد الغزالي رحمه الله بعدد من الأحاديث الضعيفة بل لا أصل لها، كما أن تشريحه ووصفه للحال لا يخلو من نبرة حادة ناقمة على الوضع - وهو كذلك في غالب كتبه - لكن لعلها من غيرته الشديدة على الإسلام.

[5] أعزائي القراء، ما طرح في المقالة يمكن أن يكون بذرة لمبادرة مشروع تدريبي قادم يشمل حقائب تدريبية وكتباً مُثرية وتطبيقات مُكثفة، وآراؤكم تصقله وتقويه وتثريه ؛ فلا تبخلوا عليَّ بها.

يمكن المراسلة على البريد التالي : Adan4004@gmail.com

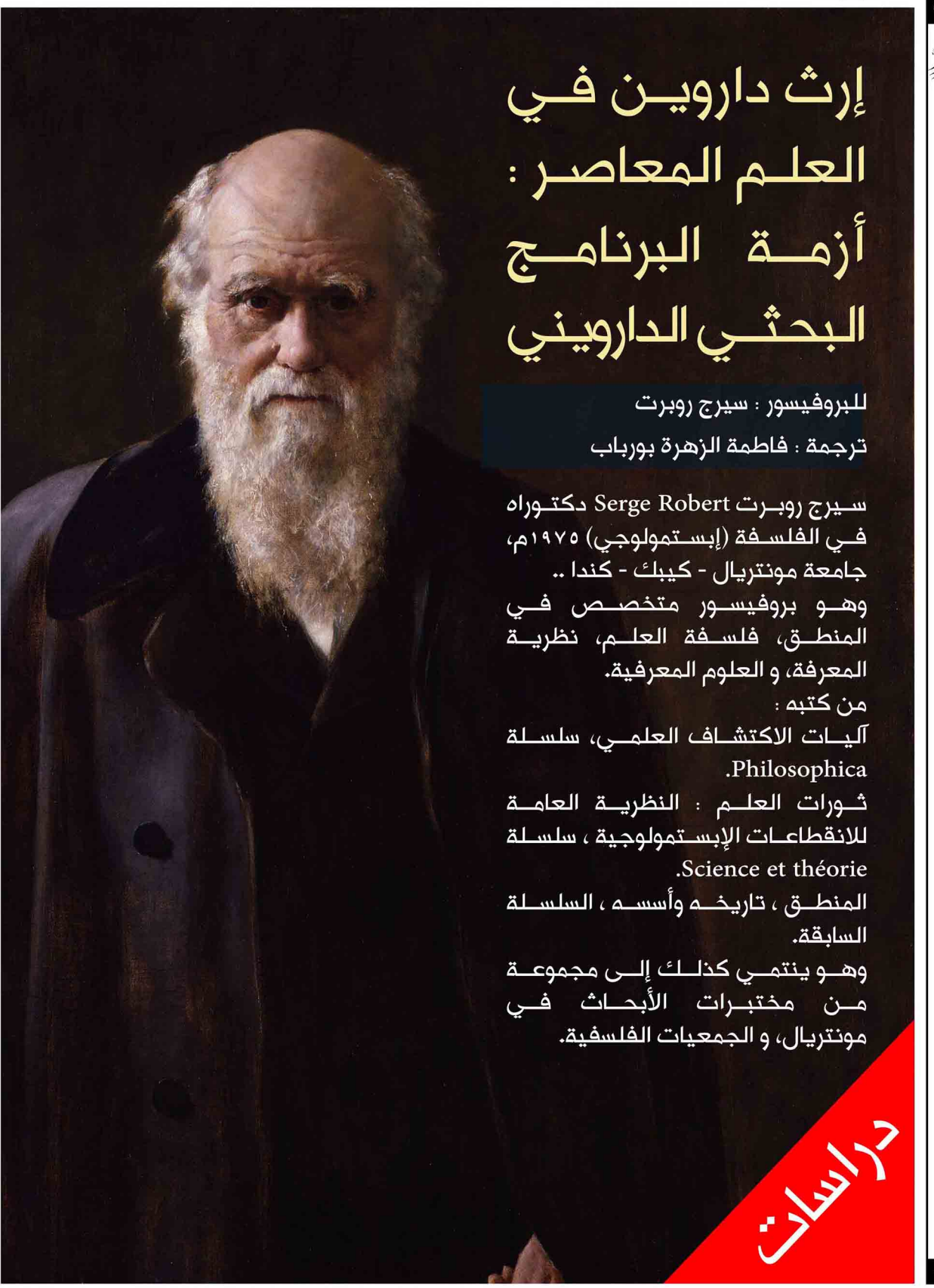

إرث داروين في العلم المعاصر : أزمة البرنامج البحثي الداروينـي

للبروفيسور : سيرج روبرت
ترجمة : فاطمة الزهرة بورباب

سيرج روبرت Serge Robert دكتوراه في الفلسفة (إبستمولوجي) ١٩٧٥م، جامعة مونتريال - كيبك - كندا ..
وهو بروفيسور متخصص في المنطق، فلسفة العلم، نظرية المعرفة، و العلوم المعرفية.
من كتبه :
آليات الاكتشاف العلمي، سلسلة Philosophica.
ثورات العلم : النظرية العامة للانقطاعات الإبستمولوجية ، سلسلة Science et théorie.
المنطق ، تاريخه وأسسه ، السلسلة السابقة.
وهو ينتمي كذلك إلى مجموعة من مختبرات الأبحاث في مونتريال، و الجمعيات الفلسفية.

دراسات

كلمة قبل البدء ...

هذه الدراسة التي وقع عليها الاختيار في هذا العدد تعد من الكتابات المعرفية القيمة، والتي تمثل إضافة هامة سواء على المستوى العلمي التطبيقي، أو الفلسفي الفكري، وهي تستمد أهميتها من المكانة الشائكة لموضوعها ألا وهو التغيرات التي وقعت لأصل (نظرية التطور).

وترجع قوة الطرح إلى شمولية اطلاع الكاتب على تاريخ نشأة النظرية منذ داروين وإلى الآن، وما مرّت به من تعديلات كثيرة في محاولة لتوفيقها مع مُستجدات العلوم والاكتشافات التي تتعارض معها في كل يوم.

والدراسة هي المقالة الأخيرة من كتاب (داروين بعد داروين) Darwin après darwin، والذي صدر عام 1982م عن جامعة كيبك بمناسبة مرور 100 عام على موت داروين، وضم إليه كاتباه Joseph Josy Lévy و Henri Cohen أكثر من كتابة متخصصة.

وقد قمنا بإضافة رسوم وصور وتوضيحات باللون الأزرق، مع وضع عدد من شروحات للمصطلحات المتخصصة بين علامتين هكذا : [ ] لتختلف عن توضيحات الكاتب نفسه والتي تجدونها بين قوسين : ( ).

وهدفنا من هذه الدراسة هو ما أثبته الكاتب من مدى التغير الذي وقع للبرنامج البحثي الداروينيي التطوري والذي طال "النواة الصلبة" لأطروحات داروين ولم يتوقف عند "الحزام الحافظ" لها مما يعد تناقضاً مع ما ينتسب إليه التطوريون اليوم... نترككم مع الدراسة :

منذ صدور كتاب (أصل الأنواع) سنة 1859م وإلى يومنا هذا، لم تعرف البيولوجيا - من حيث كونها علماً تجريبياً - إلا برنامجاً بحثياً واحداً بالمعنى الذي يُعرّفه لاكاتوس، وذلك هو البرنامج الداروينيي. من هنا ينبغي لنا الإقرار بأهمية داروين، فداروين ومعه مفهوم التطور عبر الانتقاء الطبيعي هما اللذان منحا للبيولوجيا كلها التوجه الذي بذلت وسعها للحفاظ عليه إلى اليوم. تهدف هذه الورقة إلى ترتيب المحطات التاريخية الكبرى لهذا البرنامج لنستخلص منها تبعاتٍ إبستمولوجية [أي معرفية] على تطوّر برامج البحث العلمية.

الأطروحات الداروينية

يمكن ترتيب المفاهيم البيولوجية الرئيسية المبعثرة في كتابات داروين في **سبع أطروحات** مُحدّدة سنصطلح على ترقيمها كالآتي :

أطروحة 1 : كل الأفراد الأحياء مُعرّضون للتغيّرات. كل فرد فريد من نوعه : فقد تغيّر بشكل خاص، بطريقة مختلفة عن الآخرين.

أطروحة 2 : التغيرات الفردية تتعلق بالوسط [أي بتأثيرات البيئة على الكائن]. هذه الأطروحة التي استعارها داروين من لامارك والتي ستُرفَضُ لاحقاً، تنتمي إلى تقليد سببي. مفهوم الصدفة ليس حاضراً بقوة عند داروين : فعادة ما تكون التغييرات نتائج لأسباب ما، وبالأخص نتائج لطريقة استعمال الأعضاء - المفروضة على الفرد من الوَسَط - أو عدم استعمالها.

أطروحة 3 : العديد من التغيرات الفردية هي وراثية. وينتج عن الجمع بين الأطروحتين الثانية والثالثة النظرية اللاماركية الشهيرة للطابع الوراثي للخصائص المُكتسبة، والتي بالاستناد إليها تكون كل خاصية مُكتسبة أو فطرية، هي مُكتسبةً في الأصل [مقصود الفطرية أي يولد بها الكائن بعكس المكتسبة التي تظهر في حياته]. وبذلك المعنى، يكون داروين - مثل لامارك - إمبيريقياً [أي مُعتمداً على الفكر التجريبي].

أطروحة 4 : تحدث الوراثة بالوساطة. فالخصائص الفطرية عند الفرد هي نتيجة خليط من خصائص والديه، بحيث تكون كل خاصية ناتجة هي وسيطةً بين الخاصيات المختلطة. بذلك يكون الطفل الذي أحد والديه ذا شعرٍ بنيّ والآخر ذا شعر أشقر، يكون هذا الطفل ذا شعر كستنائي [أي خليط وسطي بين الاثنين]. يتم تفنيد هذه النظرية باستمرار، ليس فقط بملاحظة الأفراد، بل أيضاً باعتبار الجنس ككلّ، إذ أنها تستلزم اضمحلالاً جينياً يتمثل في توحيد نمط الأفراد عبر تعاقب الأجيال. وحيث أن داروين كان قد سجّل العديد من مواطن الضعف الإمبريقية في هذه النظرية، فهي لم تخدعه، وحيث لم يكن على دراية بأعمال مُعاصِره مِندل حول القوانين الوراثية، فقد نسَب إلى عملية الانتقال الوراثي أسلوبَ اشتغال غامض نسبياً.

أطروحة 5 : توجد عملية انتقاء طبيعي للأفراد. هذه الأطروحة قد استخلصها داروين من نظرية مالتوس التي تقول أن النمو الهندسي للمجتمعات لا يوازنه النمو الحسابي للموارد إلا جزئياً، وهو ما يؤدي إلى التناقص النسبي لوسائل العيش، وبالتالي إلى فائض متزايد من الأفراد.

ولما لاحظ داروين أن نسبة جيدة من أفراد المجتمع يموتون في سن مبكرة أو لا يتوالدون، فقد استنتج من ذلك أن الطبيعة مُجَهَّزة بقاعدة لا مفرّ منها هي قاعدة التخلّص من الفائض. هذه القاعدة هي آلية الانتقاء الطبيعي، والتي تقول بأن الأفراد الذين تعرّضوا لتغيّرات مواتية للبقاء في بيئة معيّنة، يبقون على قيد الحياة ويتوالدون، على عكس الأفراد الذين تعرّضوا إلى تغيّرات غير مواتية والذين سيهلكون.

وحيث أن الانتقاء الطبيعي يشتغل من غير غاية، ودون أن يقوده وعيٌ ما، فإنه يعارض كل أشكال الغائية. وبالتالي لا تؤول الطبيعة الداروينية نحو أية نقطة نهائية، نحو أي إنجاز.

أطروحة 6 : النوع هو مجموع أفراد يتشاركون عدداً من الخصائص المشتركة ويسكنون في بيئة متشابهة نسبياً.
وعلى نفس المنوال : الصنف هو مجموع أفراد داخل النوع خصائصُه المشتركة أكبر من خصائص النوع المشتركة. معيار انتماء الفرد إلى النوع معيار كمّي لا كيفي، والنوع ليس إلا المجموع الكافي للأفراد الذين يمتلكون عدداً كافياً من الخصائص المشتركة. لا وجود بالتالي إلا للأفراد، إذ أن النوع ليس إلا امتداد متصل من الأفراد.
وجهةُ النظر الداروينية إسمية وغير واقعية بحيث صار النوع : ليس إلا اسماً للعديد من الأفراد.

أطروحة 7 : هناك تطور بطيء ومستمر للأنواع. هذه الأطروحة الأخيرة هي النتيجة المنطقية للأطروحات 1 و3 و5 و6 : علماً بأن الأفراد الأحياء يتغيرون، وأن العديد من التغيرات وراثية، وأن الطبيعة تقوم بالفرز بين الأفراد، وأن النوع هو مجموع أفراد، فإن الأنواع تنشأ وتهلك عبر عملية تاريخية بطيئة من الانتساب بين الأفراد.

وبذلك تمكن تشارلز داروين من تطوير الحدس الذي كان لدى جَدّه إيرازموس داروين بخصوص تطور الأنواع داخل نسق متماسك. هذه الأطروحة السابعة تعارضت مع معظم تصورات القرن التاسع عشر، وجعلت من داروين ثورياً مثيراً للجدل.

تعارضت مع الثباتية المحددة التي تُنكر تطور الأنواع، كما تعارضت مع نظريات مختلفة أخرى غير ثباتية. حيث تحدث نشأة النوع عند البعض عبر تولد تلقائي، وتحدث عند البعض الآخر عبر تغير كارثي لنوع آخر. الانتقاء الطبيعي عند داروين آليةٌ قابلة للملاحظة تتفادى سحر التلقائية، ويُبطِلُ الكارثيةَ كون التغير المحدد ناتجاً عن تراكم التغيرات الفردية. وأخيراً فإن نظرية تطور الأنواع تسمح بتفادي النظرية المسيحية للخلق المُنفصل، أي الاستعانة بالإله كخالق لكل نوع منفصل لتفسير وجود أنواع مختلفة، وتهاجم كذلك نظرية مسيحية أكثر أصولية، وهي نظرية الخلق الخاص، التي تجعل نوع الإنسان نوعاً خاصاً خُلق على صورة الإله أو شبيهاً به. ومن هنا كان اعتراض النظرية على المركزية البشرية الأساسية في الفكر الكلاسيكي ؛ هو ما جعل النظرية الداروينية تُختزل كثيراً إلى عبارة "الإنسان أصله قرد" وتُدان إلى هذه الدرجة من التطرف من قبل الكنيسة المسيحية. وبالفعل لا تتوافق النظرية الداروينية للتطور مع وجود الإله إلا من جهة كونها تدع المجال مفتوحاً أمام خلق أصلي فريد، إذ أنها لا تفسر ظهور أول كائن حي.

يمكن إذن إيجاز إسهام داروين في نظرية تطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي، والتي تمكن من استخلاصها عبر المكونات التالية : تأثير جده ومالتوس ولامارك، مقاربة إسمية إمبريقية سببية (وضد - غائية) للطبيعة، ملاحظات دقيقة غزيرة للنباتات والحيوانات والبشر وتنوع البيئات. حيث أبطل داروين بنظريته تصورات عصره حول المسألة، أي الثباتية والتلقائية والكارثية ونظرية الخلق المنفصل ونظرية الخلق المُميز.

الداروينية بعد داروين : الداروينية الجديدة والداروينية الجينية الجديدة

منذ داروين، اتبع البحث في البيولوجيا التجريبية إلهاماً

داروينياً بامتياز. لكن معظم الأطروحات الداروينية قد استُبدِلت من خلال هذا التقليد.

فقد أثبت وايزمان، ابتداء من عام 1880م أن التغيرات الوحيدة التي تنتقل من جيل إلى آخر هي التغيرات الفطرية [أي التي من أصل خلقة الكائن واشتهر بتجربته في قطع ذيول 19 جيلاً من الفئران ولاحظ ولادة الأبناء دوماً بذيول من جديد]. فأنشأ بالتالي داروينية جديدة (ضد - لاماركية) تنبذُ نظريةَ توريث الصفات المكتسبة، مع قبولها بالأطروحات الداروينية الأخرى. وبذلك وقع أول تغيير معنا وهو في الأطروحتين 2 و3 فصارتا كالتالي :

أطروحة 2 أ) : بعض التغيرات تُكتَسَب من البيئة وبعضها الآخر فطري.

أطروحة 3 أ) : التغيرات الفطرية وراثية والتغيرات المكتسبة ليست كذلك.

وسوف يتغير لاحقاً البرنامج الداروينـي مرة أخرى على يد فريس، عندما أعاد في 1880م اكتشاف قوانين الوراثة التي كان قد حددها مندل في 1865م وطواها النسيان. فحسب مندل فإن كل خاصية لأفراد نوع ما - مثل لون العيون مثلاً - تتمظهر في متغيرين اثنين (العيون البنية والعيون الزرقاء)، أحدهما مُهيمِن على الآخر [أي سائد عليه إذا وُجدا معاً]، ويُسمّى الثاني متغيراً مُهيمَناً عليه أو مُتنحياً. وفي التكاثر ينتج عن الجمع بين خاصيتين مُهيمنتين اثنتين أو الجمع بين خاصية مُهيمنة وأخرى مُتنحية، سليلٌ مُتسمٌ بالخاصية المُهيمِنة، بينما لا ينتج السليل ذو الخاصية المتنحية إلا عند الجمع بين خاصيتين مُتنحيّتين.

من دراسة مندل للنباتات استنتج وجود متغيرين لكل صفة من صفات الكائن : متغير مُهيمن (سائد) والآخر متنحي. فإذا أردنا تمثيل ذلك في البشر فيمكن أخذ صفة لون العين :

حيث يوجد مُتغير مُهيمن وهو اللون البني (سنرمز له بـ A)، ومُتغير مُتنحي وهو اللون الأزرق (سنرمز له بـ a)، وبذلك تكون احتمالات وجودهما من الأب والأم كالتالي :

1- الأب والأم AA (عيونهما بنية اللون) : فستكون عيون الأبناء بنية اللون.

2- الأب والأم Aa أو aA (أحدهما عينه بنية اللون والآخر زرقاء) : فستكون عيون الأبناء بنية اللون لأن اللون البني مُهيمن على الأزرق.

3- الأب والأم aa (عيونهما زرقاء اللون) : فستكون عيون الأبناء زرقاء اللون.

فلا يُمكِن للأفراد المُتسمين بالخاصية المُتنحية أن يكونوا حاملين إلا لهذه الخاصية وحدها وليس لهم بالتالي إلا أن ينقلوها. بينما يمكن للأفراد ذوي الخاصية المُهيمنة أن يحملوا الخاصية المُتنحية دون أن تؤثر عليهم، لكن يمكن أن ينقلوها تأسلياً إلى ذرياتهم. ينبغي إذن التمييز بين الخاصيات الظاهرة (والمُسماة اليوم بالخاصيات ذات النمط الظاهري Phénotypique والتي من بينها تكون كل الخاصيات غير المُكتسبة خاصيات وراثية، وبين الخاصيات الوراثية (والمُسماة كذلك بالخاصيات ذات النمط الوراثي Génotypique)، والتي بعضها ليس ظاهراً (كالخاصيات المُتنحية).

ومن خلال اكتشاف هذين المتغيرين (المُهيمن والمُتنحي) للخاصيات الوراثية ؛ ومن خلال إدراك قوانين الجمع بينهما، تُبطِل النظرية المندلية - والمُثبتة إمبريقياً على مستوى عالٍ - أطروحة داروين الرابعة، وذلك دون ذكر أنها تتفادى الاضمحلال الجيني وتفسر التأسّل. ويترتب بالتالي عن الوراثة - البعيدة عن كونها وسيطة - ترتيبٌ وتمييز بين الأفراد، فهي تتسم بما يُعرف بالاضمحلال السلبي Néguentropique. مما يجعل الفرد مُميزاً لا لأن كل خاصية من خاصياته خليطٌ من خاصيات والديه، بل لأنه يصير تجميعاً فريداً من الخاصيات المنقولة تارة من أحد والديه وتارة من الآخر.

وبالإضافة إلى التغيرات التي يتم الحصول عليها عبر قوانين الانتقال الوراثية، فقد عرّف دي فريس تغيرات أخرى تحدث كتغيرات داخلية مُفاجِئة ومستقلة عن البيئة ووراثية، وهي التي يُسميها بالطفرة حسب نظريته الطفرية عام (1900م) وهي المُحرك الأساسي للتطور.

ثم يأتي مورغان (1925م) ليرفع مصداقية هذه النظرية الطفرية بالتعرف على أكثر من أربعمائة طفرة مختلفة عند ذباب الفاكهة [الدروسوفيلا].

لكن أهمية مورغان تظهر أكثر في تمكنه من منح الفرضيات المندلية أسساً خلوية. حيث تحتوي الخلية - وهي المكون العضوي الأساسي لكل فرد - على نواة تلتقي فيها أزواج من الصبغيات [أو الكروموسومات وسُميت كذلك لأن العلماء يصبغونها كيميائياً لتمييزها تحت الميكروسكوب]. بحيث يتكون كل زوج من صبغي نقله أحد الأبوين انطلاقاً من الخلية الأصلية التي تشكلت عند الإخصاب. يملك كل صبغي مئات من الجينات [وهي الحاملات للصفات الوراثية للكائن]. حيث أثبت مورغان أن كل جينة تحمل في نفسها متغيراً من الخاصية الوراثية المحددة [مثل مُتغير اللون البني ومُتغير اللون الأزرق لصفة لون العين]، وأن قوانين مندل تدخل على الخط بالضبط في تركيبة الجينات الحليلة [الحليل أو الأليل أو البديل هو المُتغيرات البديلة لجينات الأبوين، قد يكون بعضها مُهيمن والآخر مُتنحي كما قال مندل] أو المتطابقة لزوج من الصبغيات. تمّكن مورغان - مُسَلَّحاً بهذا الاكتشاف - من وضع قوائم بالجينات المنتمية لكل صبغي.

ولكن لعدم درايته بالتركيبة الكيميائية للجينات فقد وصفها من خلال التغيرات المُحددة التي هي مسؤولة عنها.

وبالعودة إلى الأطروحة الثالثة لداروين، فإن التغيرات الوراثية تُعَرَّفُ بكونها ذات طبيعة جينية. ومع أن تركيبة الجينات البديلة تحكمها قوانين صارمة، فإن حمل الخلية التناسلية (المشيج) التي ينقلها المُنسِل، لبديل أو لآخر، هو نتيجة الصدفة [يقصد توزيع هذه البدائل في صبغيات الأب والأم للأبناء]. حيث تقابل حتميةَ تركيبة الجينات : عشوائيةٌ في نقلها. وبالإضافة إلى النقل الجيني، فإن العامل الثاني المسؤول عن التغيرات الوراثية - وهو الطفرة - يحدث عشوائياً هو الآخر. وبذلك تم التخلي تماماً عن اللاماركية الموجودة على مستوى الأطروحة الثانية عند داروين. حيث لم تعد تتعلق التغيرات الوراثية بالوسط فقط (ضد - إمبيريقية)، بل هي نتيجة للصدفة كذلك (ضد - سببية).

في كتابه (علم الوراثة وأصل الأنواع) Genetics and the Origin of Species عام 1937م، يدمج دوبجانسكي النظرية الوراثية المندلية بالبرنامج الداروينى بأن أضاف عدم تمايز الجينات البديلة فيما بينها من جهة الهيمنة في التوارث فقط، بل كذلك من جهة التأقلم مع الوسط.

وعلى هذا ثبت أنه توجد بدائل - مُهيمنة أو مُتنحية - أكثر تأقلماً من غيرها، وأكثر أهلية للسماح ببقاء وتكاثر حاملها.

يُعرّف دوبجانسكي - الوفي لمصطلحات أطروحة داروين السادسة - النوعَ كمجموعة أفراد. ويُخصص دوبجانكسي هذه الأطروحة رياضياً بوصف النوع بالخصائص الظاهرية phénotypique التي تنتجها الجينات التي تتمظهر كأغلبية. وذلك بإبقائه على الأطروحة الخامسة للانتقاء الطبيعي من جهة أخرى، وعلى هذا يستطيع دوبجانكسي تخصيص الأطروحة السابعة كذلك للتطور البطيء والمتواصل للأنواع انطلاقاً من التغير الإحصائي البطيء لتردد الجينات البديلة المُحددة.

يُعرَّف من هذا المنطلق النوعُ الجديدُ بالظهور التدريجي لأغلبية جديدة من حيث الخاصيات الجينية الظاهرة. وبذلك أنشأ دوبجانسكي ما يُسمى بـ (علم الوراثة الرياضي للمجتمعات). وبنفس المناسبة، وبينما كان يُلخص نظريات داروين ومندل، أثبت أن عملية التوارث تكفي وحدها لإدراك نشأة وموت الأنواع، وأنه على عكس الأطروحة الطفرية فإن الطفرات لا تلعب إلا دوراً تابعاً في تطور الأنواع. بعد دوبجانسكي، تغيرت كل أطروحات البرنامج الداروينى باستثناء الأطروحة الأولى. حيث صار شكل البرنامج الداروينى بعدئذ كالتالي :

أطروحة 1 : كل الأفراد الأحياء معرّضون للتغيّرات.

أطروحة 2 ب) : العديد من التغيرات الفردية فطرية وبالتالي ذات مصدر جيني. التغيرات المُكتسبة في المقابل غير جينية.

أطروحة 3 ب) : وحدها التغيرات الجينية الفطرية وراثية وهي تنتقل بعشوائية.

أطروحة 4 ب) : تركيبة التغيرات الجينية المنقولة تحدث عبر الوراثة المندلية المتسمة بالاضمحلال السلبي néguentropique.

أطروحة 5 ب) : يَنتج الانتقاء الطبيعي للأفراد عن الانتقاء الطبيعي للجينات البديلة.

أطروحة 6 ب) : يُعَرَّف النوع بالتردد الرياضي المُهيمن للتغيرات الفردية لمجتمع ما.

أطروحة 7 ب) : يحدث تطور بطيء ومتواصل للأنواع عبر تغير بطيء لتردد الجينات المُتمظهرة عند أفراد مجتمع ما.

تتعارض هذه الداروينية الجينية الجديدة التي تم تحصيلها من دوبجانسكي مع داروين بوضوح فيما يخص الأطروحتين 2 ب) و4 ب)، بينما لا تقوم الأطروحات 3 ب) و5 ب) و6 ب) و7 ب) إلا بتحديد مقابلاتها الداروينية وجعلها صالحة للتطبيق.

وبما أنه في العرف يقتضي اعتبار النظرية الداروينية في مُجملها هي نظرية الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي، فيمكننا إذن على أساس هذه الحُجة التاريخية القول أن الأطروحتين الخامسة والسابعة تشكلان معاً "النواة الصلبة" للبرنامج الداروني (أي أصل فكرة داروين والتي من المفترض ألا تتغير).

وحيث أن الأطروحة الخامسة مستقلة عن الأخريات وأن الأطروحة السابعة هي النتيجة المنطقية للأطروحات الأولى والثالثة والخامسة والسادسة، فإن الداروينية الجينية الجديدة يمكن أن تُعَدَّ منطقياً مُنتميةً لبرنامج البحث الداروني، أو بمعنى آخر : تم الإبقاء على "النواة الصلبة" للبرنامج وتخصيصها، حيث وحدها الفرضيات التي يسميها لاكاتوس بالحزام الحافظ - مثل الأطروحتين الثانية والرابعة - رُفِضَت لصالح تغير في الإشكالية.

وخلاصة القول، أن البيولوجيين قد حكموا ضمنياً على مسألة خطأ داروين بخصوص أصل التغيرات وطريقة توريثها أنها خطأ غير ذي أهمية، وأن ما يهم هو اكتشافه لتطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي. ومن هنا يتبين أن القبول بهذه الأطروحة الأساسية هو ضروري لجعل البيولوجيين المعاصرين يدّعون أنهم : داروينيون جُدُد.

أزمة البرنامج الداروني

بعد أن منح دوبجانسكي توجّهاً تجريبياً قابلاً للإثبات والتنبؤ للداروينية الجديدة، واجه البرنامج الداروني منذ ذلك الحين مشاكل ذات أهمية كافية لنعتبر أنّه يمر بأزمة. ومرة أخرى : لن تسلَم إلا الأطروحة الأولى، إذ لم توجد دراسة تسمح بالتعرف إمبريقياً على أية ثباتية على المدى الطويل.

فعلى مستوى الأطروحة الثانية، قامت أعمال هـ ج موليـر بتعريفنا على مظاهر عملية التطفر، مثل دمج الصبغيات أو انشطارها أو "العبور cross-over"، وتفاعلات أخرى أكثر تعقيداً بين الصبغيات. وفي العديد من الأحيان، تم تحديد بعض المكونات الخاصة بالبيئة كمتسببات في هذه الطفرات. وهنا تستعيد السببية اللاماركية الداروينية القديمة جزءاً من تفسير التغيرات على حساب الصدفة. فالجينات أقل تجاهلاً لوسطها مما كنا نعتقد.

وبما أن هذه الطفرات ذات طبيعة جينية، فهي تسمح بنوع من رد الاعتبار إلى الأطروحة (اللاماركية - الداروينية) لوراثية المُكتسَب (أطروحة 3). وقد أثبت س هـ وادينجتون من هذا المنظور في كتابه (استراتيجية الجينات) The Strategy of the Genes كيف أن الحشرات تماماً مثل ذباب الفاكهة (ذباب الدروسوفيلا) قادرة على الاستيعاب الجيني للخاصية المُكتسبة، وذلك عبر عملية تَشَكُّل ذات نمط وراثي خارجي.

نكتشف في المقابل الطبيعة الضيقة جداً للوراثة المندلية، فهي لا تنطبق إلا على الكائنات الزوجية diploides (أي الكائنات التي تظهر جيناتها في شكل أزواج فقط)، أي تلك التي لا تستطيع حمل أكثر من بديلين لتحديد كل خاصية. إلا أن بعض الأنواع غير زوجية، كما يمكن أن نعثر على جينات عدد بدائلها أكثر من اثنين. بل نعثر عند ذباب الفاكهة على أكثر من عشرة بدائل لبعض الجينات المُحدّدة. وبذلك تصير قوانين التركيب المندلية بين الجينات المُهيمنة والمُتنحية حينئذ أبسط مما ينبغي. يُضاف إلى ذلك أن الوجود المشترك لبعض الجينات عند الكثير من الكائنات يمكن أن يُحدِث طفرات عبر ردود الأفعال التفاعلية التي تؤدي إلى بنيات جينية جديدة قد نكون بعيدين جداً عن معرفة كل تعقيداتها المُمكنة. وذلك على عكس الفرضية التي يدعمها مندل، فإن الخاصية الوراثية لا تُوَرَّث دوماً مستقلة بعضها عن بعض (انظر موليـر). فإذا كانت الوراثة المندلية قد عرفت العديد من التأكيدات والإثباتات لوقت طويل، فينبغي عليها الآن أن تتحمل بعض الاستثناءات.

وكما هو حال الأطروحتين الثانية والثالثة، نجد أن الأطروحة الرابعة ومتغيراتها صارت أطروحة متداعية.

أما فيما يتعلق بالأطروحة المركزية للانتقاء الطبيعي (وهي الأطروحة 5)، فقد تم جعلها نسبية بالنسبة للبيئة من جهة وتخفيفها من جهة أخرى. حيث من وجهة النظر الداروينية فإن كل تغير هو مناسبٌ أو غير مناسب للبقاء دون التشديد على إمكانية أن يكون نفس التغير مناسباً في بيئة ما وغير مناسب في أخرى.

وقد أدت فرادة الأوساط الطبيعية المختلفة هذه إلى نشأة علم البيئة (انظر هيكل Haeckel) عبر الدراسة الدقيقة للتفاعل بين الكائنات وأوساطها.

وبذلك المعنى أثبت ماير جيداً سبب عثورنا على العديد من التغيرات الجغرافية لنفس النوع، بيئات مختلفة قامت بانتقاء تغيرات مختلفة بتوليدها لأعراق جغرافية (انظر دراسة ماير عن طائر الدرونجو الإندونيسي).

وهذه الفرادة الانتقائية للبيئات سمحت لماير باكتشاف إمكانية نشأة نوع جديد عبر الهجرة خارج المجال العادي لانتشار نوعٍ ما.

اندهش دوبجانسكي، في دراساته الإحصائية، من عثوره على تعدد أشكال جيني متوازن، أي الحفاظ في كل نوع على معدل ثابت نسبياً ومهم من الخلائط Hétérozy-gote [أي وجود البدائل معاً]. لكن... إذا كانت إحدى الجينات في زوج جينات البدائل أكثر تأقلماً من الأخرى، فمن المفترض ألا تحتوي عشيرة ما population إلا على أفراد خليطة حاملة لهذا الجين الأكثر تأقلماً وحده. لكن على العكس من ذلك، نجد العديد من الخلائط - أي الحاملة لبديلين اثنين - وكذا الخلائط من النوع الآخر محفوظة. ولتفسير هذه الظاهرة اضطررنا مرة أخرى إلى جعل التأقلم مع البيئة أمراً نسبياً، فعند ليفين، تتكون الكوة البيئية niche écologique للنوع من جزئين بالنسبة لجينتين بديلتين، إحداهما تكون المتماثلات من نفس النوع متأقلمة بشكل أفضل والأخرى تكون المتماثلات من النوع الآخر تحافظ على بقائها بشكل أفضل.

أما عند لي Li فيضيف جزءاً ثالثاً للكوة البيئية حيث الجينات الأكثر تأقلماً هي الجينات المتماثلة، بينما عند ليفين ومولير تكون الخلائط أقل تأقلماً بكثير.

وبدلاً من الاكتفاء بجعل الانتقاء الطبيعي نسبياً بكل بساطة بالنسبة للسياق، تذهب بعض الدراسات الأخرى إلى حد التقليل من أهميته بشكل كبير.

وهنا تظهر المعضلة في علم وراثة العشائر حين يكتشف هولدين عام 1957م أنه باعتبار الإيقاع السريع لاستبدال الجينات في تطور العشائر وباعتبار المعدل الضعيف جداً للخصوبة : فإن كوْن إحدى الجينتين البديلتين أفضل تأقلماً من الأخرى دائماً يستلزم - كتبعية رياضية - تقلصاً للعشيرة بل ربما انقراضها. وبما أن هذه النتيجة متعارضة بالطبع مع الحقائق، لزِم التقليل من أهمية دور الانتقاء الطبيعي، سواء باعتبار أنه ينخفض بتقلص العشيرة (انظر والاس)، أو لأنه لا يلعب دوراً إلا على بعض الأزواج من الجينات البديلة (انظر كيمورا).

يزداد اعتقادنا اليوم بأن الانتقاء الطبيعي قد يكون متعلقاً بحجم العشيرة، وأنه لا يلعب دوراً في الوقت ذاته إلا على عدد محدود جداً من الجينات، بينما الجينات الأخرى محايدة بالانتقاء ومختلفة بالصدفة (حيادية كيمورا الجينية).

تساهم دراسة تشكل الأنواع، أو الانتواع، كما قام بها ماير (1942م)، بشكل كبير في إعادة النظر في كلية وجود الانتقاء الطبيعي.

فعند ماير يحدث الانتواع تباينياً spéciation allopatrique، أي بالانعزال الجغرافي العَرَضي لعدد محدود من أفراد عشيرة ما خارج مجال انتشارها العادي. أو بتعبير آخر، فإن آلية الانتقاء الجنسي الضرورية للانتقاء الطبيعي لتفسير الانتواع التماثلي spéciation sympatrique ليست مهمة كفاية لإيجاد نوع جديد.

وقد ساهم كارسون (1975م) أيضاً في التقليل من أهمية الانتقاء الطبيعي بالتعرف على نسقين جينيين متباينين داخل النوع وهما : نسق مفتوح تطوري حيث يلعب الانتقاء الطبيعي دوراً، ونسق مُغلق حيث يوجد حفظ ملحوظ ولا يمارس الانتقاء الطبيعي فيه أي دور.

تمت مراجعة الأطروحة السادسة كذلك، حين منح ماير نوعاً من الوجود للأنواع بتعريفه لخاصية التمييز بين الأنواع بكونها لا تقدر على التمازج وإنتاج سلالة

خصيبة. تمنح نظرية النسقين الجينيين عند كارسون أيضاً واقعاً للأنواع مغايراً للواقع الإسمي، إذ أنها تصل إلى التمييز بين تطور الأفراد عبر الانتقاء الطبيعي - والذي يمارس عمله على النسق المفتوح - وبين تطور الأنواع الذي يحدث عبر إعادة انتظام مفاجئة للنسق المغلق.

وأما خارج إعادة الانتظام الأساسية والنادرة هذه، فإن النسق المغلق الثابت يشكل مجموعة حقيقية من الخصائص الدائمة للنوع.

وأخيراً، وفيما يتعلق بأطروحة التطور البطيء والمستمر للأنواع (أطروحة 7)، فإن دوبجانسكي قد فسرها بتغير تردد الجينات، وأكد ذلك سيمسون (1944م) جزئياً بتحليلاته الإحاثية (أي آثار الكائنات الحية من عظام ونحوه). أما فيما يتعلق بتغير تردد الجينات، فقد أثبت كارسون بصورة جيدة أنه لا يكفي لإنشاء نوع جديد، إذ أنه لا يتعلق إلا بالنسق الجيني المفتوح. إذ وحده تغير النسق المغلق يسمح بالانتواع، وهذا النوع من التغيير من المفترض أن يكون سريعاً وغير متواصل. يحدث الانتواع عند كارسون بالقفزات بشكل عشوائي وكارثي.

وهي النتيجة التي تصل إليها نظرية ماير عن الانتواع التباينى. أما فيما يتعلق بالتحليل الإحاثي، فقد تمكن غولد من إبراز الحلقات المفقودة من نظرية سيمسون التطورية التدريجية (بالأخص في دراساته الشهيرة عن المفصليات ثلاثية الفصوص trilobite) ليلتقي بذلك مع أطروحة التطور بالقفزات. وهذا حسب نظريته للتطور عبر التوازنات المتقطعة équilibres intermittents ، حيث يشير فيها إلى تعاقب فترات توقفٍ من غير تطور مُعتبر مع فترات ثورات جذرية.

إذاً... ما الاستنتاجات التي يمكن أن نستخلصها من الوضع الحالي للأطروحات الداروينية ؟ وذلك مع الوضع في الاعتبار أن إضافة داروين هي في الأساس نظرية تطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي، وأنه من غير المهم كثيراً أن يكون أخطأ في أصل الاختلافات وفي قوانين الوراثة، حيث أن البيولوجيين يمكن أن يُعَدّوا داروينيين إلى حدود ظهور داروينية دوبجانسكي الجديدة. والإجابة... باعتبار أنه منذ ذلك الحين أعيد النظر في كل الأطروحات الداروينية (ما عدا الأطروحة الأولى) وأنها عورضت من جهة علم الوراثة وعلم الإحاثة، فإنه يمكن اعتبار برنامج البحث الداروينى واقعاً في أزمة عميقة.

وأما بالنسبة لباحثيه فلا هم الذين يرونه برنامجاً منتهياً - إذ لا زال جميعهم تقريباً ينسبونه إلى أنفسهم - ولا هم الذين يرونه برنامجاً مزوراً بمعنى أنه تم تفنيد بوضوح كل أطروحاته (باستثناء نظرية الوراثة الوسيطة القديمة). وهكذا حينما نرسم مخططاً بانورامياً لمشروع البحث هذا، نكتشف في الواقع أن كل باحث لا يختلف - استناداً إلى حدود أبحاثه المتخصصة - مع التقليد الداروينى إلا في نقطة محددة، وهو ما يسمح له من وجهة نظرة بالاستمرار في اعتبار نفسه داروينياً. غولد هو المثال النموذجي لهؤلاء البيولوجيين الذين يريدون أن يكونوا أكثر داروينية مما هم عليه.

لكننا حينما نجمع بين مختلف إسهاماتهم ينبغي استنتاج أن هناك خطأ، وأن البحث البيولوجي لم يعد داروينياً إلى ذلك الحد، وأنه بحاجة بشكل لا واعٍ إلى نظرية تطور جديدة، إلى داروين جديد. فالبرنامج الداروينى في الحقيقة قد انفجر إلى أجزاء تمنع الباحثين من إدراك الأمر. وبالتالي فهم قد شرعوا من غير أن يدركوا ذلك في وضع بديل للبرنامج الداروينى.

أسس الداروينية

لكي نستشف الأطروحات التي بإمكانها أن تكون أطروحات للبرنامج ما بعد الداروينى ولنعرف بشكل أفضل بعض مكونات برنامج بحثهم هذا، سنحاول الآن وصف أسس الداروينية من خلال أنواع المسائل الفلسفية التي تقترح لها الداروينية إجابات. فمنذ : كون ولاكاتوس على الأخص، نعرف بالفعل أنه لا يحق للخطاب العلمي طرح فرضيات إمبيريقية [أي تجريبية] إلا داخل تقاليد تُثبت أطروحات فلسفية كذلك. ومن هنا أضع فرضية أنه ينبغي على أي برنامج بحث أن يحتوي دوماً على أطروحات فلسفية نظرية من نوعين : أطروحات أنطولوجية من جهة [أي تتعلق بالموجود نفسه]، وأطروحات إبستمولوجية من الجهة الأخرى [أي تتعلق بكيفية المعرفة نفسها].

أما فيما يتعلّق ببرامج البحث في العلوم البيولوجية والإنسانية (على خلاف العلوم الفيزيائية)، فينبغي أن تحتوي كذلك على أطروحات فلسفية تطبيقية، أي أطروحات أخلاقية سياسية.

الأنطولوجية الداروينية

فيما يخص الداروينية، يمكن ملاحظة أن النزاع حول الأطروحتين الثانية والسابعة هو في ذات الوقت مُساءلة لمجموع الأطروحات الأنطولوجية والإبستمولوجية والأخلاقية السياسية المتدخلة في برامج البحث، وهو ما يُظهر أن الداروينية تعيش أزمة عميقة.

فعلى المستوى الأنطولوجي، سبق ورأينا أنه من خلال الأطروحة السادسة وتفصيلها في علم وراثة العشائر، فالداروينية إسمية... العالم عندها مأهول بالأفراد لا بالأنواع. وبخصوص هذا السؤال تدفعنا الأبحاث الحالية إلى التساؤل عما إذا كانت الطبيعة كذلك مأهولة بالأنواع ؟

المسألة الأنطولوجية الثانية التي تطرقت إليها الداروينية هي مسألة التغيير. يمثل التغيير بالتطور الذي نجده في الأطروحة السابعة : الإسهام الأكبر للداروينية في تاريخ العلوم بتوفيرها للنموذج الوحيد المعروف للتقدم اللا غائي [أي بدون هدف مُسبق مُحدد].

وهذا النموذج للتغيير يتسم كذلك بالاستمرارية وجرعته من الصدفة (انظر الانتقال الوراثي) والحتمية (انظر قوانين الوراثة والانتقاء الطبيعي). وفي أزمة الداروينية، يتم وضع مقابل ذلك نموذج التغيير بالانقطاع [مثلما فعل ستيفن غاي غولد بفرضيته عن التوازن المتقطع لتفسير غياب المُستحاثات الانتقالية المتدرجة ببطء بين الأنواع وانقطاعها لفترات طويلة من الزمن بدون تغيير]، وعلى هذا يتم إعادة تقييم أدوار الصدفة والحتمية.

كل برامج البحث العلمية تجيب - ولو ضمنياً - على سؤال الشموليين وسؤال التغيير : ماذا يوجد في العالم وكيف يتغير ؟

أما فيما يخص برامج البحث البيولوجية والإنسانية، فينبغي عليها كذلك - بحكم اعتمادها على العلوم الفيزيائية - الإجابة عن سؤال اعتمادها نفسها على العلوم الفيزيائية : هل ينبغي للعلوم البيولوجية والإنسانية أن تنسخ نفسها على العلوم الفيزيائية ؟ أم تمنح نفسها منهجية خاصة ؟ هذا السؤال الإبستمولوجي في صيغته، هو أنطولوجي في أسسه، إذ أن الإجابة التي سنضعها له تعتمد على تصورنا عن علاقات القرابة أو الغرابة للإنسان والأحياء مع الطبيعة ككل.

يُمَرْكَزُ النزاعُ حول العلاقات بين الأحياء وغير الأحياء في التعارض بين الآلية والحيوية. فالحيّ عند الآلية، له قرابة كبيرة مع غير الحيّ، فهو يملك نفس مكوّنات الثاني ولا يتميّز عنه إلا بتعقيده الكبير. أما من وجهة النظر الحيوية، فغرابة الحيّ بالنسبة لغير الحيّ كافية ليكون تفرده غير قابل للاختزال إلى غير الحيّ. وأما على المستوى الإبستمولوجي، تتطلب الآلية اختزال العلوم البيولوجية إلى العلوم الفيزيائية، بينما تمنع الحيوية ذلك. أما فيما يخص مسألة علاقة العلوم الإنسانية بالعلوم الفيزيائية، فهو يُعيد من جديد المسألة الفلسفية القديمة عن العلاقة بين الجسد والروح. وحسب اتسام وجهة النظر بالمركزية البشرية أم لا، أي حسب اعتبار فرادة العقل كبيرة أم لا، ويترتب على ذلك صعوبة تحقيق اختزالية العلوم الإنسانية إلى العلوم الفيزيائية من خلال العلوم البيولوجية أو عدم صعوبتها.

وَضَع داروين بالأخص برنامج بحثٍ بيولوجي بالتحديد انطلاقاً من اكتشاف التطور عبر الانتقاء الطبيعي، اكتشافٌ غير قابل للاختزال إلى الظواهر الفيزيائية. وتم تضخيم هذه الحيوية الأصلية لاحقاً عبر النظرية المندلية للوراثة التي تتعارض مع مبدأ الاضمحلال الجيني الخاص بالظواهر الثيرموديناميكية. حيث أثبتت مؤخراً أعمال بريغوجين وجهة النظر هذه بدفعه إلى تعريف الحياة كخلق لترتيبات وإخلالات محلية في التوازن في العملية العامة لإنتاج توازن فيزيائي يمتد في فوضى تامة.

إلا أنه عند بيولوجي مثل مونو، فإن اكتشاف التركيبة البيوكيميائية للجينات من طرف واتسون وكريك (1947م)، أي انتظامها في جزيئات حمض نووي ريبوزي منقوص الأوكسجين (DNA): تستبعد الحيوية لصالح الآلية. ففي كتابه (المصادفة والضرورة) (1970م)، يثبت مونو كيف أن هذا النزاع يقف على الأرضية التالية : أي خاصية من بين خاصيتي (بقاء النافع)

و(الثباتية التكاثرية) -invariance re productive هي الخاصية الأهم عند الأحياء ؟ إذ بميله إلى أهمية (الثباتية التكاثرية) - غير القابلة للنزاع بالنسبة إليه - فهو يدعم نظرية الآلية ضد النظرية الحيوية التي كانت تدّعي العكس. ويستند في ذلك إلى أن الحمض النووي لا يملك إلا أربع نيكلوتيدات مختلفة ذات قواعد نووية لمجمل المحيط الحيوي، وأن كل تتابع محدد لثلاث نيكليوتيدات يشكل الرمز الوراثي الذي يسمح بترتيب أحد الأحماض الأمينية العشرين المختلفة في السلسلة متعددة الببتديد التي ستكوّن بالتالي بروتيناً محدداً.

إذاً... مع واتسون وكريك، قامت الكيمياء الأحيائية بتأسيس البيولوجيا على العلوم الفيزيائية حيث : لا وجود إلا لأربعة أحرف في أبجدية المحيط الحيوي [يقصد القواعد النتروجينية الأربع ATCG والتي بتنوعاتها يتم إنتاج مئات الآلاف من البروتينات التي تشكل جميع الكائنات الحية]، فهي تمثل أساس كل وراثة، لأنها تعطي رموز الأحماض الأمينية لتشكل مختلف الوظائف العضوية التي تُمارس عند مختلف الأحياء. وبذلك تتمكن هذه الآلية من وصف ماهية الحياة كيميائياً. لتتعرض المركزية البشرية بنفس الطريقة إلى صدمة حيث : من أصغر العضويات المجهرية البدائية [مثل البكتريا] وصولاً إلى الإنسان، نجد أن المكونات البيوكيميائية [أي للحمض النووي] هي نفسها، فقط تعقيد التنظيم هو الذي يتغير.

ومهما اعتقد مونو خلاف الأمر، فإن النقاش لم يُغلق بعد. يمكن للحيوي فيتاليست أن يجيب عن ذلك بأن جزيئة الحمض النووي فريدة من نوعها، وأنها تملك خصائص غير قابلة للاختزال إلى خصائص الجزيئات الأخرى، إذ أنها ولأجل هيكلة البروتين تقوم باستنساخ نفسها وترجمتها إلى حمض نووي ريبوزي (RNA)ناقل/ناسخ، وتنضم إلى الحمض النووي الريبوزي الناقل، ثم تنضم أخيراً إلى أحماض أمينية مكوِّنة للبروتين. وبخصوص هذا السؤال الأنطولوجي الصعب المرتبط بالعلاقة بين المحيط الحيوي والكون، يجد البرنامج الداروينى نفسه هنا في أزمة كذلك... حيث بعد تراث حيوي قوي، جدّدت الكيمياء الحيوية آليتها ليتم فتح الجدال الفلسفي القديم مرة أخرى.

أما فيما يخص سؤال علاقة الإنسان بالمحيط الحيوي، فدائماً ما كان البرنامج الداروينى مناهضاً للمركزية البشرية منذ كتاب (أصل الإنسان) 1871م [أي ضد فكرة تميز الإنسان من بين المخلوقات]، حيث طبق داروين نظريته على النوع الإنساني، وإلى يومنا هذا، لم يعُدّ الداروينيون الإنسان أبداً استثناءً من النظريات البيولوجية. ومن زاوية النظر هذه - ورغم المسافات التي يرغب غولد في أخذها مع علم الأحياء الاجتماعي - فيجب الإقرار بأن هذا التفسير الداروينى للتصرفات الاجتماعية عند البشر هو مثل الحيوانات : كان حاضراً مسبقاً عند داروين، وأنه غير قابل للفصل عن البرنامج الداروينى.

الإبستمولوجية الداروينية

من المعلوم أن المكونات الإبستمولوجية لبرامج البحث هي مهمة بنفس القدر. حيث يتكون أي تقليد علمي من أطروحات واضحة إلى حد ما حول المنهج الذي نستطيع من خلاله معرفة المواضيع التي ينبغي دراستها على النحو الصحيح.

ومن هذه الجهة، يستلهم التقليد من إبستمولوجية. لكن الإنجازات العلمية لبرنامج بحثي ستمثل في الوقت ذاته قاعدة صياغة الأطروحات الإبستمولوجية. فالعلم الإمبريقي وكذلك العلم الإبستمولوجي هما من هذه الناحية في علاقة ديالكتيكية [أي جدلية] من التأثير المتبادل.

وبسبب نظرية التطور اللاغائية الخاصة بها، ظلت الداروينية مهمة بشكل خاص بحكم أثرها على النظريات الإبستمولوجية.

ومن هذا المنطلق، تحمل أية نظرية داروينية للعلم - كما فعل كون وبوبر - ميزة مزدوجة وهي منح قواعد بيولوجية للمعرفة ودعم التطور العلمي بعقلانية دون الالتجاء إلى غائية غامضة [أي دون ربطها بإرادة ومشيئة خالق فوق الطبيعة والمادة المرصودة كما في الأديان]. فالبرنامج الداروينى هو موضوع تاريخي مهم لمحاولة استخلاص نظرية وصفية للعلم، ونموذج خصب لاستخلاص نظرية معيارية للعلم في الوقت ذاته.

يمكن تأويل المواجهة بين بوبر وكون كمظهر من أزمة الداروينية من جهة الإبستمولوجية. وحيث

كان بوبر يعد إبستمولوجيته تطوريةً، فقد اعتبر تطور العلوم شبيهاً بتعاقب الأنواع. ومثلما في الصدفة : يبدأ العلم بتخمينٍ ناتج عن الإبداع الحر للباحث. واستناداً لوجهة النظر هذه، فإذا كان التخمين علمياً، نستطيع حسب بوبر أن نستنتج منه نصوصَ ملاحظةٍ تحمل تخطئة محتملة للتخمين الأول. فتفنيد التخمين عبر المُخطِّئات هو بالتالي طردٌ لفرضية لا تلائم الطبيعة عبر الانتقاء الطبيعي.

وحيث أن الفرضيات المُختبَرة هي فرضيات فردية، فإن الانتقاء الطبيعي حسب بوبر يجري على أفراد إبستمولوجيين.

فالإبستمولوجيا البوبرية ما هي إلا داروينيةُ العلم الكلاسيكية، فالفرضيات العلمية تتعاقب على إقصاء نظيراتها الأقل تأقلماً مع واقع تجربتنا. النقطة التي يبتعد فيها بوبر رغم ذلك عن الداروينية، هي عندما يقدم غاية معينة في نظرية داروين في التطور، معتبراً أن عدم قابلية تفنيذ فرضيةٍ ما فإنه يُخفق عندها الفرضية المنافِسة، وهو ما يُعد ارتفاعاً في درجة القرب من الحقيقة (vérisi-militude) للفرضية المنتصرة، فتصبح الحقيقة المتعذرة المنال الحدَّ الذي يؤول إليه العلم.

تستفيد معارضة كون لبوبر سراً من حُجج شبيهة بالتي أضافها علماء الوراثة والإحاثة إلى أزمة الداروينية. حيث يعترض كون على بوبر بأن الوحدات ذات المعنى في العلم ليست الفرضيات الفردية، بل مجموعة معقدة من الأطروحات والمكونات الأخرى المكونة للبارادايم [البارادايم هنا هو نمط الفكر العلمي السائد في فترة معينة]. وحيث اعتبر كون أن العلم ليس المجتمع المفتوح الذي يصفه بوبر، بل مجتمع مغلق، فقد صور البارادايم كنوعٍ يصارع لأجل بقائه بطريقة محافِظة برفع نفسه إلى مقام الاحتكار العقائدي. إن التدابير المُحافِظة للبارادايم تجعله يطرد الأمثلة المضادة بصفتها مجرد اختلالات لا مُخطِّئات.

لكن تراكم الاختلالات يضع البارادايم في أزمة تأتي بعدها الثورة العلمية المؤسِّسة للبارادايم الجديد [يشير فلاسفة العلم إلى أن البارادايم الحالي يُمارس فرض أفكاره بالقوة في وقت ما ويتجاهل كل الاعتراضات التي تواجهه، لكنه يصل إلى الانهيار عند تزايد هذه الاعتراضات وجديتها وعدم قدرته على التفسير والاستمرار].

فحتى وإن لم يدَّع كون انتسابه إلى الداروينية مثل بوبر، فقد فسر تاريخ العلوم بالصراع لأجل البقاء، ويُفضل - مثله مثل ماير وكارسون - وجهة النظر القائلة بالأنواع لا بالأفراد.

إذاً... حينما يتعلق الأمر بالتأسيس للتطور العلمي، يستدعي كون النموذج الداروينيي بوضوح، بل يستدعيه بوفاء أكبر من بوبر نفسه، إذ لا نعثر عنده على أثر للغائية الموجودة في التطور عند بوبر. يرجع التطور عند كون إلى أن مؤسسي البارادايم الجديد يطورونه مُراعين أزمة البارادايم السابق، فيعتبرون أنه قد فشل في اختبار الانتقاء الطبيعي الخاص به. إلا أن هذا الأخذ بعين الاعتبار لا يسمح بإقامةِ استمراريةٍ وسببيةٍ بين البارادايمات المتعاقبة. بل إن البارادايمات على العكس غير قابلة للمقارنة والقياس - مثلها مثل الصدف - إذ يبدأ كل شخص من الصفر مجدداً في ثورة لحظية. وكما هو حال الانتواع حسب ماير وغولد وكارسون، فإن ظهور البارادايم يحدث بانقطاع جذري سريع.

عندما سعى لاكاتوس بعد ذلك إلى تجاوز التعارض بين

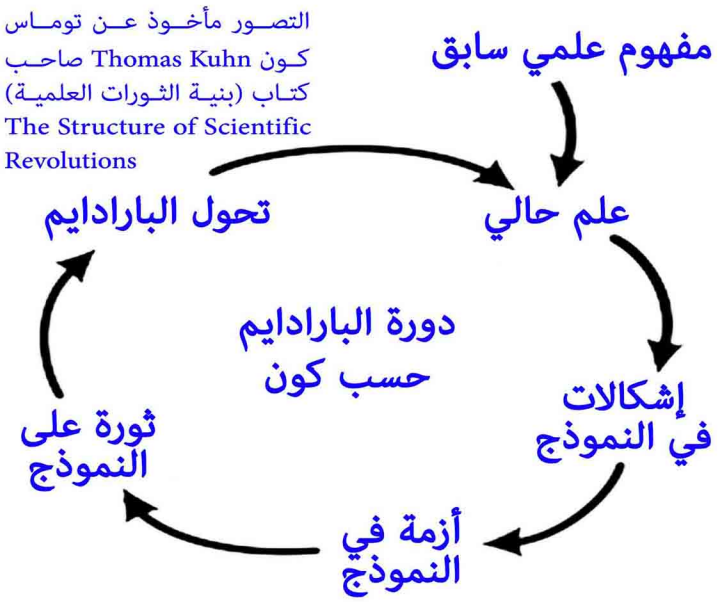

التصور مأخوذ عن توماس كون Thomas Kuhn صاحب كتاب (بنية الثورات العلمية) The Structure of Scientific Revolutions

المجتمع العلمي المفتوح لبوبر والمجتمع العلمي المغلق الخاص بكون، فقد صالَحَ بينهما كما صالَح كارسون بنسَقَيْه الوراثيَيْن المفتوح والمغلق بين نظرية التطور عبر الأفراد ونظرية التطور التي تمنح الأولوية للأنواع.

برنامج البحث عند لاكاتوس هو في الوقت ذاته النسق المُغلَق لـ "النواة الصلبة" والنسق المفتوح للحزام الحافظ. حيث تتطور أطروحات الحزام الحافظ ببطء وباستمرار عبر تعاقب مبني على الانتقاء الطبيعي. أما أطروحات "النواة الصلبة" ففي مأمن من هذا الانتقاء وتُشكِّل مجموع الخاصيات الأساسية للنوع الذي يمثله مشروع البحث. فتصير تغيُّرات المشروع النادرة ثوراتٍ مفاجئةً.

نستطيع إذن أن نختم هذه الاعتبارات الإبستمولوجية عن الداروينية بالتأكيد على أن دينامية نماذج التفسير التي نجدها في علم الوراثة منذ دوبجانسكي إلى مايـر وكارسون، شبيهة بالتي نجدها في نفس الفترة الزمنية تقريباً عند بوبر إلى كون ولاكاتوس.

الأخلاقيات والسياسة الداروينية

عندما ينتمي مشروع بحثي إلى العلوم البيولوجية أو الإنسانية، وبالإضافة لخضوعه إلى ما هو موجود في العالم ولكيفية تعرفنا عليه، يضع اقتراحات أخلاقية وسياسية حول ما ينبغي فعله. ومن ثَمَّ تستلزم الأزمة التي نعيشها اليوم أزمَةً في القيم والإيديولوجيات السياسية.

فالتأويل الكلاسيكي للتطور عبر الانتقاء الطبيعي للأفراد يسوّغ لأخلاق فردانية ولأيديولوجية الليبرالية السياسية.

حيث إذا كان المحيط الحيوي عبارة عن مجموعة أفراد متصارعين فيما بينهم في أدغالٍ تقصي وتقضي على الضعيف، يكون حينئذ رفع مصالح المرء الخاصة فوق مصالح الآخرين أخلاقاً مُثلى، وتكون الليبرالية بصفتها تصوراً للدولة يجعل كل شيء في خدمة الشركة الفردية هي السياسةَ الأمثل لضمان التقدم الاجتماعي عبر القضاء على الضعفاء وازدهار الأقوياء. وسواء قبلنا بالأمر أم لا، تبقى الداروينية الاجتماعية التي اعتمدتها النازية - بل وحتى علم الأحياء الاجتماعي - مستوحاة من الداروينية الكلاسيكية ونتيجة لها.

وفي المقابل : إذا كان تطور الأنواع يحدث عبر فترات الركود والقفزات بدلاً من أن يحدث بالانتقاء الطبيعي للأفراد، فإن الحرب ما بين الأفراد تفقد أهميتها لصالح غريزة المحافظة على الجماعة. وتصير بذلك الاشتراكية الأخلاقية - والتي تعطي الأولوية لمصلحة الكل قبل مصلحة الفرد – هي نسق القيم الأنسب.

وبنفس الطريقة، تصير السياسات السوسيو - ديموقراطية [من سوسايتي أي المجتمع] هي الأنسب، إذ تهدف أولاً إلى الرفاهية الجماعية.

فالأزمة العلمية للبرنامج الداروينـي هي نفسها الأزمة الأخلاقية والسياسية لعالم اليوم. وقد اكتشف علماء الأحياء أن الانتقاء الطبيعي ليس آلية بسيطة ومُطلَقة ومحتومة، بل متعلقة بالسياق، وأن أهميتها أقل مما اعتقده الداروينيون الأوائل.

وسمحت لنا أيضاً الإنجازات التقنية للعلم وإيديولوجياتنا السوسيو - ديموقراطية القائلة بالمساواة بين البشر بتغيير مسار الانتقاء الطبيعي.

فعلى سبيل المثال، غيرت إتاحةُ التقنية الطبية لعدد متزايد من البشر وكذا محاربة التمييز العرقي والجنسي طريقةَ عمل الانتقاء الطبيعي. لا نستطيع القضاء على الانتقاء، لكن نستطيع تغيير أنماط عمله. حيث تبين للدول المعاصرة بالتجربة أن الفردانية والليبرالية تُنمِيان آثار هذا الانتقاء، بينما تقللها الاشتراكية الأخلاقية والديموقراطية الاجتماعية.

تبقى المشكلة الرئيسية التي تواجهنا، أننا لا نعرف تبعات كل موقف من الموقفين على المدى البعيد.

مثال الداروينية : الأزمات ومعايير التمايز في العلم

في ختام هذا النص، نستطيع الاستعانة بتقسيمات لاكاتوس في تحديد ما يعنيه مفهوم أزمة برنامج بحثي.

حيث يكون مشروع البحث في أزمة حين يُعاد النظر في جزء من "نواته الصلبة" التي كانت إلى ذلك اليوم غير قابلة للنزاع.

فلا يكفي مجرد التغير المعتاد للفرضيات المُساعِدة للـ "حزام الحافظ" لتأويل الملاحظات الأمبريقية غير القابلة للتنبؤ.

وفي النظرية الداروينية لتطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي للأفراد، قمنا باستبدال أطروحتي داروين حول أصل التغيرات وحول قوانين توريثها.
وبما أنه يمكن اعتبار أن الأطروحتين تنتميان إلى "الحزام الحافظ"، فيمكن اعتبار أن البرنامج قد خضع لتطور عادي. إذ أن "النواة الصلبة" التي تمثلها أطروحة تطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي، ظلت على حالها. يمكن إذن أن نعُدَّ "تغير الإشكالية" الذي أحدثته الداروينية الجديدة، استناداً إلى علم وراثة العشائر لدوبجانسكي، تغيُّراً تنبؤياً جداً وبالتالي تطورياً وعلمياً. ثم رأينا - مع مورغان وموليير ووادينجتون - أن البرنامج الدارويني قد تقهقر جزئياً إلى الوراء نحو داروين فيما يخص سؤال أصل التغيرات، واكتشف في الوقت ذاته مشكلات عدة في الانتقال الوراثي. يمكن أن نتحدث هنا عن أزمة سطحية، حيث أُعيد النظر في أطروحات تنتمي إلى "الحزام الحافظ" - قوانين مندل على سبيل المثال - دون أن يُعثَر لها على بديل مُرضٍ.

لكن مع إدخال النسبية على الانتقاء الطبيعي (مايير، ليفين، لي)، والتقليل المُعتَبَر من أهميتها (والاس، كيمورا، مايير، كارسون)، وكذلك اكتشاف الميزة التطورية للأنواع عبر اللا اتصال أو الانقطاعات (مايير، كارسون، غولد)، فإن "النواة الصلبة" ذاتها تتأثر جزئياً ؛ فالموضوع يتعلق هنا بأزمة عميقة.
لا وجود لمفهوم الأزمة العميقة حسب نظرية لاكاتوس. حيث ما يميز "النواة الصلبة" للحزام الحافظ عند لاكاتوس أنها غير قابلة للتغيير، فإما أننا نحميها في قلب البرنامج البحثي بإدخال تغيرات على الحزام الحافظ، وإما أننا نتخلى عنه كلياً بعد انحلاله ويتم استبداله ببرنامج بحثي جديد.
هنا قمت بإدخال مفهوم الأزمة للإخبار عما يعيشه البرنامج الدارويني حالياً من : تغير جزئي في "نواته الصلبة". وخلافاً لما يقول لاكاتوس عن الأمر، يمكن أن تكون النواة الصلبة قابلة للمراجعة جزئياً.
فالفارق بين "الحزام الحافظ" و "النواة الصلبة" ليس إذن اختلافاً مُطلقاً، بل اختلافاً نسبياً. فالحزام الحافظ لا يقبل التغيير عند لاكاتوس إلا في قلب البرنامج البحثي، أما النواة الصلبة فلا.
وينبغي أن نقول هنا أننا نتردد داخل البرنامج البحثي في تغيير النواة الصلبة أكثر مما نتردد في تغيير الحزام الحافظ، لكننا نستطيع تغيير النواة الصلبة عند الحاجة جزئياً دون أن نلفظه تماماً ونغير البرنامج.

ولكي نستوعب تبعات هذا النقد لمفهوم النواة الصلبة عند لاكاتوس، فلننظر عن قرب إلى المعنى الذي يمنحها إياها. ينتمي لاكاتوس إلى تخصّصين اثنين : تاريخ العلوم وفلسفة العلوم. فهو يعرف نظريته إذن كتجاوز لتعارض بني تاريخ العلوم - والذي كان ليكون أعمى دون فلسفة العلوم - وبين هذه الأخيرة التي كانت لتكون فارغة بدون الأول. يستخلص لاكاتوس تمييزه بين النواة الصلبة والحزام الحافظ من الملاحظة التي نجدها في تاريخ العلوم حول التقاليد المتسمة بتشارك الأطروحات المشتركة التي نرفض تغييرها، والتي نقبل إلحاقها بالفرضيات المُساعِدة للقضاء على مُخطّئاتها المُحتملة.
أما إذا صارت أطروحات النواة الصلبة غير قابلة للاختبار بفضل الحزام الحافظ، فهذا يعني أنها قابلة للاختبار دون الاستعانة بالفرضيات المُساعِدة. وتكون هذه الأطروحات - من وجهة النظر هذه - ذات طبيعة إمبيرقية.
أما من وجهة نظر فلسفة العلوم، فيستند التمييز بين النواة الصلبة والحزام الحافظ على معارضة لاكاتوس لبوبر والوضعية، والذي تتمايز عنده القضايا العلمية ذات المضمون الإمبريقي القابل للاختبار، عن القضايا الميتافيزيقية بوضوح. فالقضايا العلمية عند لاكاتوس - وهو متأثر في ذلك بكون - توجد دائماً داخل برنامج البحث وتتوزع في شكل قضايا إمبريقية خاصة بالحزام الحافظ، وقضايا غير قابلة للاختبار وميتافيزيقية في الغالب، خاصة بالنواة الصلبة. فأطروحات النواة الصلبة - من زاوية النظر هذه - ليست إمبريقية، لكنها كذلك من وجهة نظر تاريخ العلوم.

لا يتعرض لاكاتوس بالتفصيل إلى الوضعية الأنطولوجية لأطروحات النواة الصلبة، بل هذه الوضعية مُلتبَسَة عنده، إذ أنه يقف في ملتقى تخصّصين اثنين. فمن جهة تاريخ العلوم، معيار التمييز بين النواة الصلبة والحزام الحافظ معيار تاريخي، والنواة الصلبة قابلة للاختبار،

بينما من جهة فلسفة العلوم، فإن هذا المعيار نظري والنواة الصلبة غير قابلة للاختبار.
حيث لا يتوقف الأمر عند عدم تكافؤ المعيارين، بل هما متناقضين فيما يخص قابلية اختبار النواة الصلبة.
وبإثبات أن النواة الصلبة قابلة للمراجعة جزئياً : يمكننا وضع البرنامج بهذا في أزمة، وذلك بضربنا لمثال البرنامج الداروينى، حيث نستطيع رؤية التباس لاكاتوس بخصوص طبيعة أطروحات النواة الصلبة نتيجةٌ لنسبية معيار التمييز بين النواة الصلبة والحزام الحافظ. وهو ما يجعل الأطروحة تنتمي إلى النواة الصلبة وليست إلا مسألة اختلاف في الدرجة : فهي تقاوم التغير أكثر مما تقاومه أطروحات الحزام الحافظ، وبالتالي هي أقل إمبريقية من هذه الأخيرة.

تستلزم قابلية النواة الصلبة للمراجعة أن يكون الاختلاف بين أطروحة ميتافيزيقية وأطروحة إمبريقية هو مسألة اختلاف في الدرجة كذلك. وهنا يمكنني الالتحاق بنظرية كوين حول العلم الشامل : حيث يكون الانطلاق من نصوص الملاحظة إلى نصوص العلم النظرية ثم إلى النصوص الميتافيزيقية، لا اختلاف إلا في الدرجة. وبذلك تتناقص القابلية للاختبار والمراجعة من الأولى إلى الأخيرة. بل نستطيع أن نعتبر مُسبقاً – كما في التأويل المزدوج التاريخي والنظري للنواة الصلبة - أن الطابع الميتافيزيقي للقضية عند لاكاتوس لا يتعلق أولاً بمضمونها بل بالموضع الذي تحتله في برنامج البحث. وإذا قمت هنا بإضافة قابلية النواة الصلبة للمراجعة جزئياً، فإن هذا الموضع يصير نسبياً بالنسبة لسياق البحث.

بالإضافة إلى ذلك، ينبني جزء من النواة الصلبة في البرنامج الداروينى على التجربة الإمبريقية. وهو حال الأطروحات الإمبريقية للنواة الصلبة - مثل الأطروحتين الثالثة والخامسة - فالتغييرات التي قدمها وادينجتون ووالاس وكيمورا وماير وكارسون تمثل بالفعل دعامة مُلاحظتية. لكن ذلك هو حال الأطروحات الأكثر أنطولوجية كذلك للنواة الصلبة : فالنقد الذي قاده ماير وكارسون وغولد للإسمية المُخصصة وللاستمرارية : مدعوم أيضاً بالحقائق. وبما أن الطبيعة الميتافيزيقية للقضية ترجع إلى لا قابليتها للاختبار، فإننا نرى أنه يكفي أحياناً تغيير تقني في أدوات الملاحظة والاختبار الخاصة بنا لتصير نفس هذه القضية مُحمّلة بتبعات إمبريقية، فتصير بذلك قابلة للاختبار نسبياً. لقد حصلت العديد من الأسئلة الميتافيزيقية سابقاً على معاملة علمية - كما حصل في علم الفلك مثلاً - بفضل البعثات الفضائية وتجويد المجهر. وعلى نفس المنوال، كانت الإسمية المتخصصة في البداية بالنسبة لداروين موقفاً فلسفياً في مواجهة التضخم الأنطولوجي، بينما وجهة النظر الواقعية التي يعارضه بها علماء الأحياء اليوم ذات طبيعة علمية. إذاً... لا تعتمد الطبيعة الميتافيزيقية للقضية على الوضع الذي يُمنَح في برامج البحث فقط، بل كذلك على الحدود التي تفرضها أدواتنا على عالم تجربتنا. حيث إذا كانت تجربتنا محدودة، فلا يبقى أي عائق نظري يمنع جعل الأنطولوجية علماً إمبريقياً.
يُمكن أن يُطرَح نفس النوع من الأسئلة مع القضايا الإبستمولوجية والقضايا الأخلاقية السياسية.
إذ ليست القضايا الأنطولوجية قضايا إمبريقية بشكل مباشر، فهي تتعلق بطبيعة الأفراد الذين يؤثثون تجربتنا. ولا تعد القضايا الإبستمولوجية والأخلاقية السياسية قضايا إمبريقية كذلك، إذ أن الأولى تتعلق بمعايير إثبات القضايا المتعلقة بتجربتنا، والثانية تتعلق بمعايير قبوليتها. ولا يقبل أي نوع من أنواع القضايا فوق العلمية الثلاثة هذه البت فيه إمبريقياً.
لكن - وكما هو حال الأطروحات الأنطولوجية - يُثبت لنا البرنامج الداروينى أن الأطروحات الإبستمولوجية والأخلاقية السياسية مرتبطة بشكل غير مباشر بعالم تجربتنا - حيث نستطيع أن نستخلص منها تبعات إمبريقية - كما يمكن أن تكون هي نفسها تبعات لأطروحات إمبريقية، وهو ما يجعلها قابلة للاختبار نسبياً.

هكذا نكون قد نظرنا إلى علاقة القرب بين بعض أنواع الداروينية وبعض النظريات الأخلاقية السياسية. وبتتبع خط الاستدلال هذا، يمكنني الاستئذان في اقتراح فرضية لعلماء الأحياء. حيث إذا أمكَن اعتبار نظرية لاكاتوس كمُتعلِّق إبستمولوجي لنظرية نُسقيْ كارسون، فيُمكن أن توافق أطروحتي لقابلية المراجعة الجزئية للنواة الصلبة نوعاً من الليونة لنظرية كارسون

من جهة إمكانية التغيير الجزئي للنسق المُخصّص المُغلق. ألا يمكن لهذه الليونة أن تفسر تطور الأنواع بشكل أفضل ؟

لا يكتفي افتراضُ قابلية المراجعة الجزئية للنواة الصلبة أن جعل الفارق بين النواة الصلبة والحزام الحافظ فارقاً نسبياً، بل يجعل الفارق بين برامج البحث نسبي كذلك. فإذا كانت الأطروحات الضرورية لبرنامج بحث هي أطروحات النواة الصلبة، فإلى أي مدى نستطيع تغيير هذه النواة الصلبة وادعاء الانتماء إلى نفس البرنامج في الوقت ذاته ؟ وبما أن برنامج البحث غالباً ما يضعه باحث واحد، نستطيع إعادة التعبير عن السؤال بقولنا :

إلى أي مدى نستطيع تغيير أطروحات القائد ونظل في الوقت ذاته نعد أنفسنا من أتباعه ؟ نعود إذن إلى السؤال الأول للنص : ما دامت نظرية تطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي قد عرفت كل التغييرات التي عرضتها هنا، دون أن يتم التخلي عنها، فهل يمكن لعلماء الأحياء أن يظلوا يعتبرون أنفسهم داروينيين ؟ حين نغير النواة الصلبة جزئياً، قد تصير معايير التمايز بين برامج البحث صعبة التحديد. هل يمكن أن نتحدث اليوم عن بحث نصف داروني ؟

لكنَّ شيئاً واحداً يبدو واضحاً هنا : إذا كان داروين هو من أطلق علم الأحياء المعاصر، فإن هذا العلم يعيد النظر في داروين اليوم بشدة، وهذه الأزمة تُعيد إلى قلب البحث العلمي المعضلة القديمة المتمثلة في معرفة :

من نحن ؟

ما هو مستقبلنا ؟

وكيف يمكن أن نجيب عن هذه الأسئلة ؟

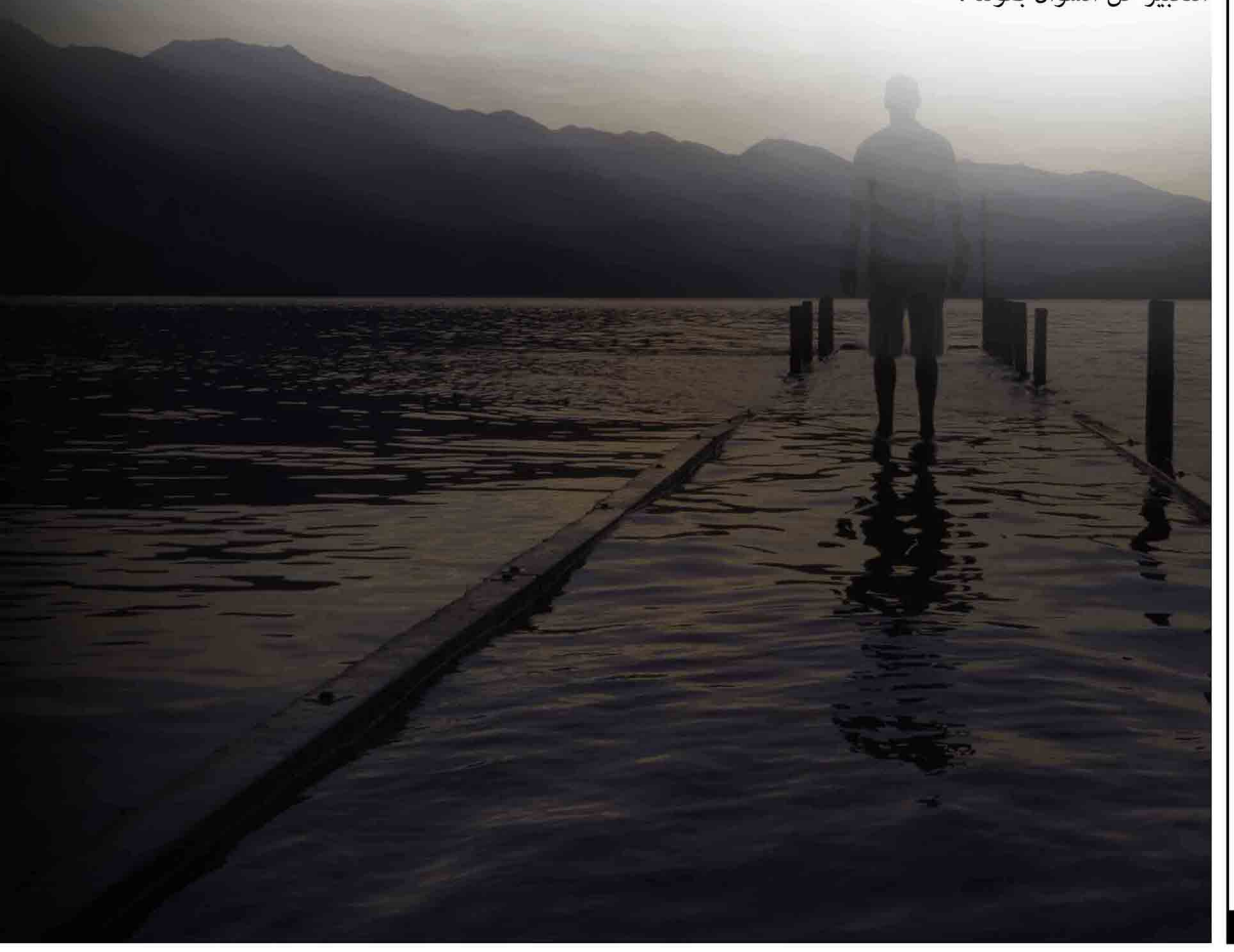

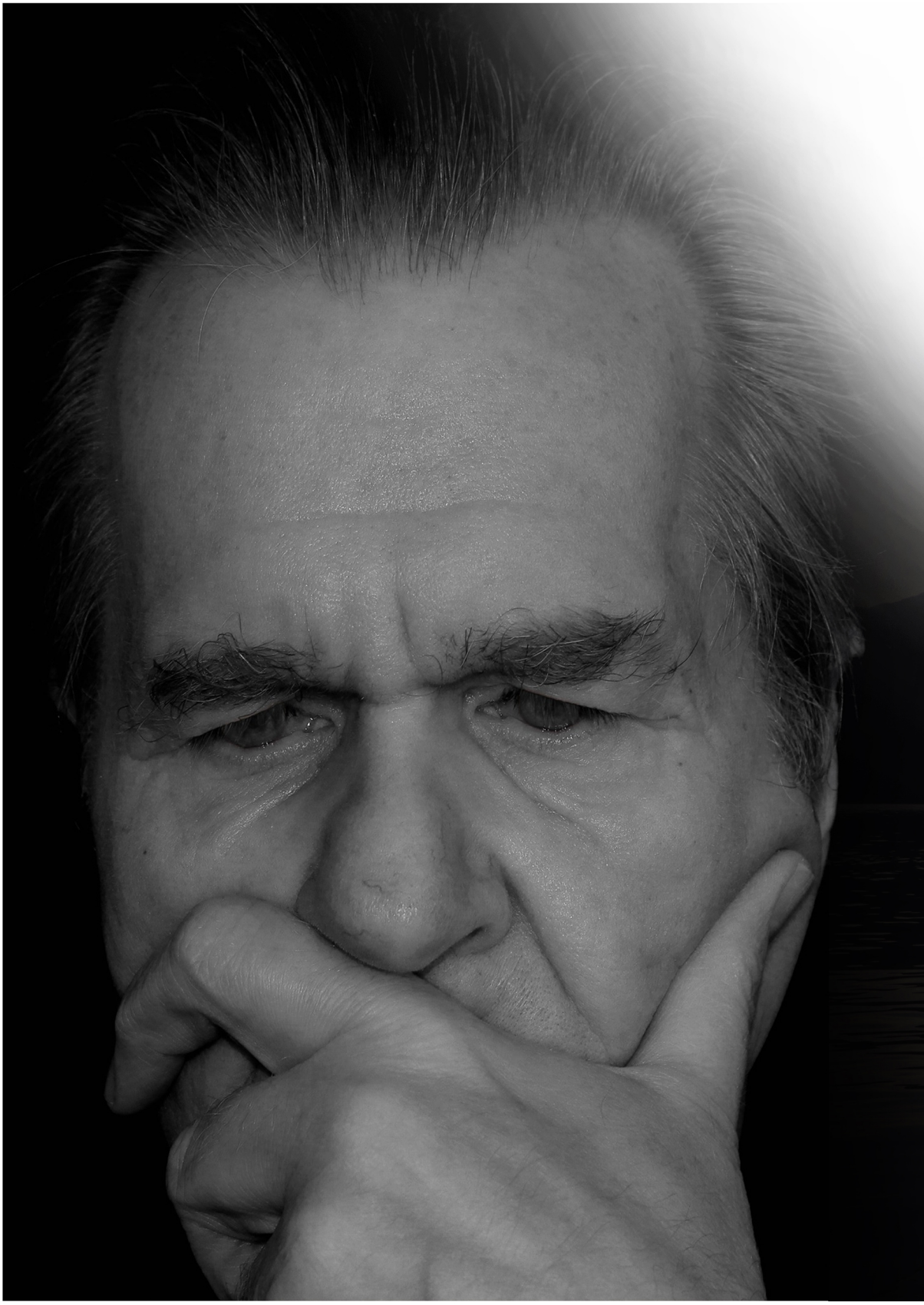

للمشاركات والاستفسارات :

المجلة :

إيميل : Aog@Dalailcentre.com

برودكاست : www.soundcloud.com/Awjym

تويتر : @AwjYM

فيسبوك : @AwjYM

إنستقرام : @awjym

مركز دلائل :

إيميل : info@dalailcentre.com

يوتيوب : مركز دلائل

تويتر : @Dalailcentre

فيسبوك : @Dalailcentre.Ar

إنستقرام : @Dalailcentre

تليجرام : @Dalailcentre

واتساب : 0539150340